

سيرة المسيح

الكتاب الأول: ولادته وصبّوته

الدكتور جورج فورد

سيرة المسيح الكتاب الأول

الدكتور جورج فورد

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة ١٩٨٦

All Rights Reserved

Order Number: SPB 7351 ARA

German title: Seine Geburt und Kindheit (Heft 1)
English title: His Birth and Early Years (booklet 1)

Call of Hope • P.O. Box 10 08 27 • D-70007 Stuttgart • Germany
<http://www.call-of-hope.com>
e-mail: ainfo@call-of-hope.com

هذا الكتاب

يسر أسرة «نداء الرجاء» أن تصدر هذا الكتاب عن حياة السيد المسيح، في سبعة أجزاء.

وقد كتب هذا الكتاب في مجلد واحد باللغة العربية الدكتور جورج فورد في أوائل العشرينات من هذا القرن، بعنوان «كتاب القول الصريح في سيرة يسوع المسيح».

وقد قام محررو نداء الرجاء بإعادة كتابته في الصورة التي تراها الآن.

ونحن نأمل أن يتعرّف القارئ الكريم على المسيح بطريقة شخصية، وأن يكون شعاره «نحن نحبه لأنه هو أحبنا أولاً».

أسرة «نداء الرجاء»

في هذا الكتاب

- هذا الكتاب ٤
- ١ - الحاجة إلى المسيح ٦
- ٢ - وصف شخصية المسيح ١٠
- ٣ - مصادر حياة المسيح ١٤
- ٤ - نسب يسوع المسيح البشري ٢٠
- ٥ - جبرائيل يبشّر زكريا ٢٥
- ٦ - جبرائيل يبشّر مريم ٣٠
- ٧ - ولادة المسيح ٣٩
- ٨ - زيارة المجوس ليسوع الطفل ٤٧
- ٩ - صُبُوَّة المسيح ٥٧
- ١٠ - يوحنا المعمدان يجهز الطريق ٦٦
- مسابقة الكتاب ٧٥

الحاجة إلى المسيح

مرت السنون والإنسان يزيد ظلماً وتعاسة، بسبب زيادة بُعده عن الكمال. وقد عجزت الفلسفة البشرية عن بلوغ الكمال وإصلاح الحال. ويظهر هذا مما قاله سقراط، الحكيم اليوناني الشهير، لتلميذه ألسبيداس: «يا عزيزي ألسبيداس، إني لا أستطيع أن أبين لك كيف تحصل على الخير الأعظم، لأني لا أعلم. لكنني موقن أن الخالق مُحسن. وأنه بناء على إحسانه سيرسل في الوقت المناسب معلماً يعلم الإنسان كيف يحصل على ذلك الخير».

عَلِمَ الاختبار هذا الفيلسوف أن الناس الفاسدين بطبيعتهم ليسوا أهلاً لإصلاح ما هو فاسد، وقد قال الشاعر العربي:

هل يُرَجَى الإصلاح من فاسد فالشهد لا يُجَنَى من الخنظل
قد وضع قادة الأمم شرائع لإصلاح الحال، كما نقرأ عن عصر حمورابي وفلاسفة اليونان وحكماء مصر ومشرعي الرومان ومجوس فارس وبراهمة الهند وغيرهم. لكن حكمة هؤلاء كلهم لم تبلغ المطلوب. ومع أن شريعة موسى شريعة إلهية، إلا أنها كانت قاصرة عن الإصلاح الكامل، لأن القصد منها كان تعريف الإنسان بخطئه، وحثه على طلب الكمال، وإرشاده إلى مصدر الإصلاح، فلم يَبْقَ هناك إلا الوساطة الوحيدة التي عيَّنَها الله لبلوغ الإنسان درجة الكمال، وهي إرسال المعلم السماوي، ابن محبته، يسوع المسيح، الذي جاء بما لا يستطيع أن يأتي مثله حكيماً بشرياً. فإنه فضلاً عن جلال شريعته وكمالها، لم يرتكب - بفكر أو قول أو عمل - أمراً مخالفاً لنقطة واحدة مما أوجب على الناس حفظه. وهذا ما قصر عنه كل مصلح سواه.

حاجتنا العظمى إذاً ليست إلى من يعلمنا طريق الكمال، بل إلى من يسير أمامنا في تلك الطريق، لنحتذي مثاله ونقتفي آثاره. ولم تطأ أرض البشر قدوس كامل غير يسوع ابن مريم، الكامل في ذاته وصفاته. وشتان ما بين تأثير علم الكلام وعلم المثال، لأن علم الكلام نظري شفهي، أما علم المثال فحسي عملي، ولذلك أصبح المسيح مطمح أبصار العالم الفاسد بأسره، ليمنحه الصلاح والسعادة وبلوغ درجة الكمال. فالأمر الهام هو معرفة ما عمله المسيح لأجلنا، وما علمه. وبعبارة أجلي درس حياة المسيح لنرى فيها طريق الإصلاح والسعادة. إن كل شيء تقريباً يمتثل المبالغة إلا الكلام عن المسيح، فإن بلاغة كل بليغ تصغر عن وصف تلك الحياة السامية الكاملة. وأعظم مكافأة يتوقعها إنسان هي أن يكون وسيلة لاقتياد الناس إلى المسيح راعي نفوسهم وأسقفها، ورسول المحبة السماوية، لننال به الكمال الحقيقي والخلاص المجاني، ونتمتع معه بالحياة الأبدية المقدسة في الأجداد السماوية. وقد وصف أحد المرمنين السيد المسيح بالقول:

قُمْ وَنَعِّمْ يَا مَرْنَم	باسم فاديننا الحبيب
برخيم اللحن عظم	ذلك الشخص العجيب
ذلك السامي السجايا	صاحب المجد الرفيع
خالق كل البرايا	لطفه محيي الجميع
أبدي أزي	كان من قبل الجبال
وهو قدوس زكي	لابس ثوب الجلال
شمس بر ذو جمال	كوكب الصبح المنير
وحده حاوي الكمال	ماله أصلاً نظير

وقد قرأ المسيح نبوة من سفر إشعياء، جاءت عنه قبل مجيئه للعالم بسبعمئة سنة، تقول: «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَّحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ، أُرْسَلَنِي لِأَعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقَلْبِ، لِأُنَادِيَ لِلْمَسِيئِينَ بِالْعِتْقِ، وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ. لِأُنَادِيَ بِسِنَّةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ، وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لِهَنَّا. لِأَعْزِي كُلَّ النَّائِحِينَ» (إشعياء ١: ٦١ و٦٢).

وقال الإنجيل عن المسيح:

«نَاطِرِينَ إِلَى رَئِيسِ الْإِيمَانِ وَمُكَمِّلِهِ يَسُوعَ، الَّذِي مِنْ أَجْلِ الشَّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ أَحْتَمَلِ الصَّلِيبَ مُسْتَهِينًا بِالْحَزْزِيِّ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللَّهِ. فَتَفَكَّرُوا فِي الَّذِي أَحْتَمَلَ مِنَ الْخَطَاةِ مَقَاوِمَةً لِنَفْسِهِ مِثْلَ هَذِهِ لِيُثَلَّ تَكَلُّوا وَتَحَوَّرُوا فِي نَفُوسِكُمْ» (عبرانيين ١٢: ٣).

«تَارِكًا لَنَا مِثَالًا لِكَيْ تَتَّبِعُوا خَطَايَاهُ» (١ بطرس ٢: ٢١).

ولهذا نقول إننا محتاجون للمسيح للأسباب الخمسة التالية:

- ١ - لأن المسيح هو القائد الديني الذي امتاز بحبه للبشر. ونجاح رسالته اليوم في العالم هي نتيجة حبه المتفاني وحضوره الحقيقي الدائم مع أبناء شعبه.
 - ٢ - لأن المسيح هو موضوع الإنجيل الذي هو أعظم بشارة سمعتها آذان البشرية، لأنها بشارة اهتمام الله بخير الجنس البشري زمنياً وأبدياً.
 - ٣ - لأن المسيح هو المخلص الذي لبس طبيعتنا البشرية اختياريًا، ليتقرب من الناس، وليتمكن من إنجاز وظيفته كمخلص الجميع، لأنه يجب كل بني آدم الساقطين.
 - ٤ - لأن المسيح هو الذي عيَّنه الله منذ الأزل، والذي أرسله في ملء الزمان، ليعلن للبشر محبة الله التي لا تُحد ولا تُوصف، وليتمم عمل الفداء.
 - ٥ - لأن المسيح هو كلمة الله المتجسد، المولود الوحيد الذي لا يكون إلا على صورة المولود منه، الذي وصفه الإنجيل بأنه «محبة». في شخص يسوع المسيح أظهر الله لنا المحبة الإلهية المتفانية، دون تمييز مذهبي - ليس نحو محبيه فقط - بل نحو مبغضيه وصاليبيه أيضاً، وأورث البشر بعده مبدأ المحبة للجميع حتى الأعداء، وأدرج ذلك في تعاليمه، وأيَّده في سلوكه، فأعلن أن المحبة هي تكميل الشريعة.
- تضع بعض المذاهب الدينية التنبير على قدرة الإله الذي يعبدونه، وبعضها على قداسته، وغيرهم على حكمته، وآخرون على رحمته. وأما المسيحية، فمع مجاهرتها بهذه

كلها، تخصص فوقها وتقدم عليها ما أتى يسوع المسيح ليعلنه جلياً، وهو محبة الله الأبوية التي تعمُّ البشر والتي تسعى لتردهم جميعاً حتى أشرفهم عن الضلال، وتخلصهم من الهلاك (يوحنا ٣: ١٦).

ولا يحقُّ لأحدٍ أن يُسمَّى مسيحياً ما لم يكن على مبدأ المحبة لجميع الناس حتى الأشرار والأعداء، للخدمة والتضحية في سبيل الخير الحقيقي للآخرين.

وصف شخصية المسيح

كلما كان ادعاء الإنسان كبيراً صعباً عليه أن يبرهنه، وسهلاً على الغير إثبات خطئه، لذلك يتجنب كل عاقل الادعاء الكاذب، خشية الفشل، وتعرض زعيمه للاحتقار.

والمسيحية أصعب المذاهب في ما تدعيه لزعيماها. فإن صحَّ هذا الادعاء أصبحت سيدة المذاهب، وزعيمها سيد الزعماء. أما إثبات ما تتطلبه المسيحية فيتوقف على مطالعة تاريخ حياة المسيح الذي قال: «مِنْ ثَمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ» (متى ١٦:٧). فعلى أقوال السيد المسيح وأفعاله ونتائج ما قال وفعل، يُبنى الحكمُ في مقدار عظمتة الحقيقية - وليس على ما ينعته به المحبون، أو يطعنه به المخالفون.

يوم كان المسيح معلماً جليلياً فقيراً أوثقه خصومه، رؤساء اليهود، وأحضره مخفوراً مكتوفاً إلى الوالي الروماني الصارم بيلاطس البنطي، طالبين الحكم عليه بالصَّلب. وبعد المحاكمة صرَّح بيلاطس ببراءة المسيح، وقال للشاكين: «أنا لستُ أجد فيه علةً واحدة». فألحوا عليه أكثر حتى جدَّد المحاكمة ثم قال: «وَهَا أَنَا قَدْ فَحَصْتُ قُدَّامَكُمْ وَلَمْ أَجِدْ فِي هَذَا الْإِنْسَانِ عِلَّةً مِمَّا تَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَلَا هِيرُودُسُ (الملك) أَيْضاً، لِأَنِّي أَرْسَلْتُكُمْ إِلَيْهِ» (لوقا ٢٣: ١٣-١٥). ثم أوصت زوجة بيلاطس بالمسيح بسبب حُلمِ آلهَا، وَسَمَّتُهُ «ذَلِكَ الْبَارَّ» (متى ١٩: ٢٧). ثم بعد ذلك قال بيلاطس ثالثة: «إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهِ عِلَّةً لِلْمَوْتِ» (لوقا ٢٣: ٢٢). ولما رضخ أخيراً لطلب اليهود بغير رضی وسلَّم المسيح للصَّلب، لم يفعل إلا بعد محاولة أخرى لتهدئة ضميره الشائر، إذ أخذ ماءً وغسل يديه قدام الجميع قائلاً: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا الْبَارِّ. أَبْصُرُوا أَنْتُمْ» (متى ٢٤: ٢٧).

فحص بيلاطس وكانت نتيجة فحصه أنه وجد المسيح باراً، وهذه النتيجة التي وصل إليها بيلاطس في نهاية حياة المسيح الأرضية هي مفتاحٌ ضروري في معرفة الشخص الذي سمّاه هذا الوالي الروماني وامراته «ذلك البار». ومعلومٌ أن العالم الراقي بأسره يؤيدهما في حكمهما في صلاح يسوع المسمّى المسيح. وشهادات اليهودي والمسلم والوثني والكافر مجمعةٌ على هذا القرار.

فأين الحل المعقول للمشكل الدائم المتعلّق بهذا الشخص، وهو التوفيق بين حكم العالم بأسره بصدق المسيح وقداسته، وبين كل ما (أ) ادّعه لنفسه مما لا يجوز لمجرد بشر أن يدّعيه، و (ب) كل ما فعله ممّا لا يستطيع أن يفعله مجرد بشر، و (ج) كل ما قيل أن يقوله فيه الآخرون أو يفعلوه له، مما لا يجوز أن يُقال في مجرد بشر أو يفعل لهم؟ لا يختلف اثنان على أن ادّعاء الإنسان بأكثر مما له، أو بغير ما له، يكون خداعاً أو غباوة أو اختلالاً عقلياً. وبالطبع لا يخطر ببال أحد أن يتهم يسوع المسيح بشيء من هذه، فكراً أو قولاً أو فعلاً.

ولا يخفى أن الرسل والأنبياء: كلما تقدموا في الصلاح، زاد تواضعهم وانكسار الروح فيهم بسبب زلاتهم أو تقصيراتهم، لأن التواضع من أسمى الفضائل، والاعتراف بالخطأ من أول الواجبات. والصلاح يولّد الشعور الدقيق في الضمير. فكما يشمئزُّ المتمرد من أقدار لا يبالي بها المتوحش، هكذا يستغفر الصالح على أمور تُعتبر طفيفة عند الأقل صلاحاً، وتكون عند الأشرار موضع الافتخار. ففي سيرة أعظم الأنبياء والرسل الذين ورد خبرهم في كتاب الوحي، نظير موسى وداود ودانيال وبطرس وبولس، ترى اعترافات مؤثرة جداً، واسترحاماً كثيراً - وذلك يزيد اليقين بصلاحهم الحقيقي، لأن ليس بينهم من ادّعى لنفسه الكمال. ولكن المسيح يختلف في هذا عن جميع الصالحين، وهذا الاختلاف يتطلب تفسيراً مقنعاً، وإجابةً للسؤال: من هو يسوع هذا؟

ولا يغيب عن البال أن الذين وصفوا المسيح بالكمال، هم الذين لازموه نهراً ولبلاً، صيفاً وشتاءً، زهاء ثلاث سنين، فتيّسّر لهم أن يعرفوا بواطنه وظواهره. ولم يكونوا من المتساهلين الذين يسدلون الستار على التقصيرات والهفوات أو يسكتون عنها، بل هم الذين بينما يشرحون سيرة المسيح، ويؤيدون سموّ كماله، كانوا يذكرون سقطاتهم وتقصيراتهم. وفي هذا دلالة كافية على إخلاصهم وحكمتهم واستقامتهم، ومستندٌ كافٍ لوضع شهادتهم عن المسيح محلّ اليقين والاحترام.

من غرائب التاريخ أن الدين المسيحي دام واستمر ونجح، رغم أنه قاسى في كل ماضيه، ولا يزال يقاسى، أمرّ المقاومات وأشدها من خصومة الأقباء، الذين قصدوا أن يحقّروه ويضعفوه، بل ويلاشوه، لأنه منذ يوم حاول هيرودس الملك قتل الطفل يسوع في بيت لحم إلى يومنا هذا، لم ينفك أعداء المسيحية العديدون المقتدرون، عن محاربة الكنيسة المسيحية وتعاليمها بذات القصد الذي ساق هيرودس إلى ما فعل.

ولا يخفى على كل مطلع مفكّر أن جميع أبواب الاعتراض على التعاليم والعقائد المسيحية فتحت قديماً في العصر الرسولي. وكانت تنام وتستيقظ جيلاً بعد جيل، وبعضها يموت لسخافته عند بيان ما يدحضه تماماً. وكان أنصار هذه الاعتراضات الكفرية وزعماء هذه المقاومات يزعمون ثم يفتخرون بأنهم قد هدموا أركان المسيحية حتى أصبحت ملامشتها أكيدة، مدّعين أن كل احترام لكتابتها المقدس قد زال، وأن أهل العالم قد رفضوا أهمّ القضايا المدرجة فيه. ولكن تعليم الإنجيل عن شخص المسيح اجتاز كل امتحان وثبت.

وقد قال المسيح في صلاته: «أبها الأب، هذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧: ٣). وقال الرسول بولس إنه يحسب كل ما في الدنيا نفاية لكي يعرف المسيح حق المعرفة (فيلبي ٣: ٨).

ويوحنا الرسول، الذي صَوَّرَ بقلمه أجمل الصور الأربعة للمسيح، يقول في آخر كلامه: «وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةً بِأَسْمِهِ» (يوحنا ٢٠: ٣١).

فحبذا إن توصل كل إنسان إلى الإيمان الشخصي الحي بهذا المخلص المنفرد عن البشر، مع كونه أيضاً شريكاً للبشر في طبيعة بشرية حقيقية، لأن هذا الإيمان يضمن لصاحبه الحياة الأبدية، باسم المسيح الذي كتب فيه الرسول بولس أن الله «رَفَعَهُ وَأَعْطَاهُ أَسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَحْتُوَ بِاسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللَّهِ الْآبِ» (فيلبي ٢: ٩-١١).

مصادر حياة المسيح

وصلتنا الأخبار الحقيقية عن يسوع المسيح من أربعة مصادر تُسمَّى أناجيل أو بشائر لمتى ومرقس ولوقا ويوحنا.

وكلمة «إنجيل» لفظة يونانية معرّبة، ومعناها «البشرى» أو «الخبر المفرح» وأول ما استُعملت له هو بشرى الخلاص الذي جاء المسيح به - بمعنى التعاليم التي تحتوي حقائق تلك البشرى، ثم سيرة المسيح التي جسّدت تلك البشرى.

وكلمة الإنجيل بهذا المعنى، لم تُعنِ بالأصل أي كتاب، بل هي البشرى نفسها ونُقلها. وقبل تدوين الإنجيل كتابة كان الإنجيل الشفهي - أي نقل البشرى شفهيّاً على لسان الرسل وتلاميذهم وكان قد انتشر في الإمبراطورية الرومانية كلها. لم يكتب السيد المسيح إنجيلاً ولم يطلب من تلاميذه أن يكتبوا، فوحي المسيحية ليس في الدرجة الأولى وحي كتاب يُنزل حروفاً وكلمات، بل وحي شخص حي، هو المسيح نفسه. ويقول الرسول بولس إن الله الذي كلّم الآباء، قديماً بواسطة الأنبياء مراراً كثيرة وبطرق شتى، كلمنا نحن أخيراً بمن هو نفسه كلمة الله. ويقول الرسول يوحنا في مطلع رسالته الأولى إن الذي سمعه الرسل ورأوه بعيونهم وتأملوه ولمسته أيديهم، بشروا به العالم، ناقلين إليه الإنجيل، أي بشرى الرجاء والخلاص.

ولكن قادة المسيحية شعروا بضرورة تدوين أخبار حياة المسيح لتبقى مرجعاً وثيقاً للجماعات المسيحية، بعيدة عن كل شبهة أو تلاعب أو تحريف. وكان لا بد من العمل في زمن رسل المسيح أنفسهم، وهم الذين تلقوا البشرى وعاشوها وعاشوها قبل أن ينقلوها لغيرهم، فعمد البعض بوحي من الروح القدس إلى تدوين الإنجيل كتابة، فكانت الروايات الأربع التي نسميها الأناجيل الأربعة، الموجودة هنا اليوم

بالكتاب المقدس - فليس في المسيحية إلا إنجيل واحد - أي البشرى التي حملها المسيح لنا، وجسدها في حياته، ولقَّنها في تعليمه. وبهذا المعنى لم يرد لفظ الإنجيل إلا مفرداً في العهد الجديد، بمختلف أسفاره. إلا أن نقل تلك البشرى إلينا وصل في روايات أربع تتفق جوهرًا وموضوعًا. الإنجيل البشري واحدٌ إذًا. أما مدوّنوه فأربعة: متى ومرقس ولوقا ويوحنا - متى ويوحنا من تلاميذ المسيح الإثني عشر. مرقس تلميذ الرسول بطرس، ولوقا تلميذ الرسول بولس - وقد كتب مرقس ولوقا تحت إشراف الرسولين بطرس وبولس.

كتب متى قصة البشرى لبني قومه من اليهود، وهذا واضح من اهتمامه بنبوات التوراة عن السيد المسيح، وكيف تحققت كلها بمجيء المسيح. أما مرقس فقد دوّن قصة البشرى عندما كان في روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ووجَّهها للمسيحيين الذين جاءوا من خلفية رومانية. ولذلك فإن مرقس ينبر على ما يستدعي انتباه الرومان من مظاهر قوة المسيح وعظمته. ودوّن لوقا البشرى للمسيحيين الذين جاءوا من خلفية يونانية، ولذلك تراه يشدد على الإرادة والقلب اللذين بدونهما لا يكتمل الإنسان، واللذين هما ظهرت محبة الله للبشر، حتى سُمِّي إنجيل لوقا بإنجيل الرحمة. أما يوحنا فقد كتب البشرى بعد انتشار المسيحية، فكتب لتوضيح بعض الأمور، ولرد على بعض الأفكار التي دخلت إلى التعليم المسيحي.

بشارة متى

«كِتَابُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ» (متى ١: ١).

كتب متى بشارته للمؤمنين من اليهود، وهو يصوّر لنا حياة المسيح، لا كحادثة مستقلة بذاتها، بل كإتمام لسلسلة تاريخية ونبوية بدأت من قديم الزمان، وعلى هذا فهو كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم جدّ اليهود. ويشير متى دومًا إلى

أسفار التوراة ليظهر كيف تمت النبوات في المسيح، فصار المسيح «مكَّمَل كل بر» أي مكمل كتابات موسى والأنبياء . وقد اقتبس متى من العهد القديم ٧٥ آية توضح أن المسيح تتميم البركة الموعودة لإبراهيم ونسله، وأنه جاء ليؤسس ملكوت السموات ليصحح خطأ اليهود الذين ظنوا المسيا الآتي سيؤسس مملكة سياسية مركزها أورشليم . ومَتَّى واحد من تلاميذ المسيح الإثني عشر .

بشارة مرقس

«بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللَّهِ» (مرقس ١: ١) .

لم يكن مرقس من رسل المسيح، ولم يُذكر اسمه مطلقاً في البشائر الأربع . كان اسمه العبراني يوحنا، واسمه اليوناني (المتفق مع الروماني) مرقس . وقد ورد ذكر هذا الكاتب أول مرة بعد صعود المسيح ببضع سنين . وكان ابن امرأة مؤمنة بالمسيح اسمها مريم، أخت برنابا اللاوي القبرصي الذي اشتهر كثيراً في التبشير . ويقول الرسول بطرس عن مرقس إنه ابنه، وهي تسمية حُبِّيَّة تدل على أن مرقس اهتدى إلى الإيمان بواسطة بطرس . وقد اتفقت كتابات الآباء المسيحيين على أن مرقس كان تلميذاً لبطرس، وأنه كتب بشارته بتوجيهه، وهذا هو السبب في عدم كتابة بطرس بشارة باسمه .

أما مقدمة مرقس فتقول: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله» . ومنها نتبيّن أن سيرة المسيح هي إنجيل، أي بشارة مفرحة مثلثة، ظاهرة في الاسم المثلث الوارد في هذه المقدمة أي: يسوع، ومسيح، وابن الله .

١ - يسوع: وقد أُطلق على المسيح اسم يسوع (أي مَحْلَص) بأمر الملاك الذي كرر هذا الاسم عندما بَشَّرَ بِقُرْبِ ولادته . وفسَّرَ تَحْصِيصَ هذا الاسم لهذا المولود بقوله:

«لأنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ» (متى ٢١:١) فيكون خلاصه خلاصاً أبدياً.

- ٢ - المسيح: ويُسمَّى «المسيح» لأنه ابن داود، الموعود به من زمن آدم فما بعده، إذ قد مسح الله نبياً وكاهناً وملكاً. وأرسله إلى العالم حسب تلك النبؤات الثمينة التي قدمها للآباء والأنبياء، في سلسلة متواصلة كريمة، جيلاً بعد جيل.
- ٣ - ابن الله: ويُسمَّى ابن الله بحق، لأنه لم يأخذ هذا الاسم الجليل من بشر، بل بإعلان إلهي ورد على لسان الملاك الذي بشر العذراء الطاهرة بأنها ستلد ابناً يكون عظيماً «وَأَبْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى» (لوقا ١:٣٢). ولما طلبت إيضاح هذا الأمر المستحيل عندها، حَقَّقَ لها جبرائيل بالتكرار، لأنه كان من الضروري إعلان مقامه الإلهي الحقيقي قبل مجيئه، فليس بين كل أخبار التاريخ البشري خبر يستحق أن يُسمَّى إنجيلاً كخبر المسيح، فهو حقاً بشاره. ولا عجب أن النبي الإنجيلي إشعياء السابق للمسيح بنحو سبعمائة سنة قال فيه: «رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَّحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ» (إشعياء ٦١:١) ولا عجب أن الملاك لما أخبر رعاة بيت لحم بولادته قال: «أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ» (لوقا ٢:١٠). ففاتحة مرقس هذه المكوَّنة من ست كلمات، تلخص ما هو ضروري أن نعرفه عن يسوع المسيح.

بشارة لوقا

«إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةِ فِي الْأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مِنْذُ الْبَدءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، رَأَيْتُ أَنَا أَيْضاً إِذْ قَدْ تَتَبَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْأَوَّلِ بِتَدْقِيقٍ، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَهْمًا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي عُلِّمْتُ بِهِ» (لوقا ١:٤-١).

ولوقا مثل مرقس، غير المذكور في البشائر الأربع، لكن لنا لمحات عن حياته في سفره الثاني (أي سفر أعمال الرسل) تُبيِّن أنه رافق الرسول بولس في أسفاره

التبشيرية. ثم نعلم من إحدى الرسائل أنه كان طبيباً محبوباً (كولوسي ٤: ١٤). والظاهر أنه كان من أهل العلم، لأن لغة كتابته في اليونانية تمتاز بالفصاحة.

ومقدمة بشارته رسالة وجيزة إلى صديقه اليوناني صاحب السمو ثاوفيلس. المؤمن بالمسيح، بين فيها لوقا أنه قصد من كتابتها إفادة ثاوفيلس وتشبيته في إيمانه الجديد، فأكد له أنه اجتهد ليقف على الأخبار الراهنة عن المسيح، فقال: «تَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَوَّلِ بَتَدْقِيقٍ، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَهْمًا أَلْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلَامِ الَّذِي عُلِّمْتُ بِهِ» (لوقا ١: ٤-٤).

بشارة يوحنا

«في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يوحنا ١: ١-٤).

والبشير الرابع هو يوحنا الرسول، الذي كان من تلاميذ يوحنا المعمدان سابقاً، وأحد الشخصين اللذين سبقا الجميع في التتلمذ للمسيح. وهو الذي نال لقب «التلميذ الذي كان يسوع يحبه» (يوحنا ١٣: ٢٣). ومع أنه صياد سمك، إلا أنه لم يكن من الفقراء، إذ كان لأبيه زبدي سفن وعمّال. وكانت أمه سالومة ترافق المسيح ورسله لكي تعولهم من مالها، وقد خصّ المسيح يوحنا بالكثير، فهو الذي اتكأ على صدره في العشاء الأخير (يوحنا ١٣: ٢٣)، وله سلّم أمه وهو على الصليب ليعتني بها (يوحنا ١٩: ٢٧). وتفوح بشارة يوحنا برائحة المحبة واللطف.

كتب يوحنا بعد زملائه الثلاثة بعشرين أو ثلاثين سنة، بعد أن كان اليقين بناسوت يسوع الحقيقي قد رسخ، وساد في أفكار المؤمنين، وزال الخوف من أن

يتزعزع. لكن لما كان التطرّف دأب البشر في أكثر الأمور، ولا سيما في الدين، فقد تحول كثيرون من المسيحيين من المجاهرة بناسوت المسيح إلى إنكار لاهوته، لذلك رأى يوحنا من الضروري أن يُضمّن بشارته كثيراً من الكلام في لاهوت يسوع، إصلاحاً للخطأ الذي كان قد تسلّل إلى الكنيسة.

وفاتحة بشارة يوحنا تُعدُّ من أفخر أقوال الإنجيل وأشهرها، ولها وقع عظيم في نفس كل محب للدين، وفيها يتذكر الكاتب الموحى إليه، بدء الخليقة. وفاتحة كتاب الوحي تقول: «فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ» (تكوين ١: ١). ولكن يوحنا يصوّر لنا بدءاً سابقاً لذلك البدء، إذ يقول: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ، وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهُ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ» (يوحنا ١: ١-٣).

نسب يسوع المسيح البشري

يلاحظ القارئ المتعجّل فرقاً بين سلسلة نسب المسيح في بشارة متى وبشارة لوقا. أما بشارة يوحنا فيظنّها تغفل سلسلة النسب تماماً. والواقع أن يوحنا لم يغفل نسب المسيح، بل عاد به إلى أصله الأزلي، كما أنه لا خلاف حقيقي بين سلسلتي نسب متى ولوقا، كما سنرى هنا.

سلسلة نسب بشارة يوحنا

والحقيقة هي أن يوحنا لم يغفل نسب المسيح، فقد أتى بلقب جديد ليسوع، لم يستعمله غيره من كتّبة الإنجيل، إذ سماه «الكلمة». وهو لقب مناسب جداً، لأن الكلمة تعلن فكر المتكلم الذي لا يظهر بدونها. وهكذا يعلن يسوع الظاهر في الجسد «الإله الذي يرى ولا يُرى». وقد أعلن المسيح بتصرفاته قولاً وفعلاً صفات الله، كقدرته وحكمته وجودته وقداسته، فصحّ أن يكون من جملة أسمائه الوصفية اسم «الكلمة»، وهو القائل: «الَّذِي رَأَى فَقَدْ رَأَى الْآبَ» (يوحنا ١٤: ٩).

كنا نظن أن يكون اللقب «الكلمة» في صيغة المؤنث، لكن من الفعل المذكر والضمير المذكر، ومن القول إن «الكلمة صار جسداً وحلّ بيننا، ورأينا مجده مجدداً كما لوحد من الآب» نرى أن يوحنا قد حوّل اسم الكلمة عن المعنى المألوف، وجعله يعني شخصاً حقيقياً هو يسوع المسيح.

وختم يوحنا مقدمة إنجيله مؤكداً أن الله روح لا يُرى قط، لكن هذا الكلمة، الابن الوحيد من الآب، قد أعلنه، وهو أهلٌ لذلك، لأنه ساكن في حضن الآب فيعرفه حق

المعرفة. ولكي يعلنه للبشر «صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا» (يوحنا ١: ١٤) وهذا الحلول يُسَمَّى التجسد أو التأنس .

سلسلة نسب بشارة متى

«كِتَابُ مِيلَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ . إِبْرَاهِيمُ وُلِدَ إِسْحَاقَ . وَإِسْحَاقُ وُلِدَ يَعْقُوبَ . وَيَعْقُوبُ وُلِدَ هَهُودًا وَإِخْوَتَهُ . وَهَهُودًا وُلِدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ . وَفَارِصُ وُلِدَ حَضْرُونَ . وَحَضْرُونَ وُلِدَ أَرَامَ . وَأَرَامُ وُلِدَ عَمِّيَنَادَابَ . وَعَمِّيَنَادَابُ وُلِدَ نَحْشُونَ . وَنَحْشُونَ وُلِدَ سَلْمُونَ . وَسَلْمُونَ وُلِدَ بُوعَزَ مِنْ رَا حَابَ . وَبُوعَزُ وُلِدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ . وَعُوبِيدُ وُلِدَ يَسَّى . وَيَسَّى وُلِدَ دَاوُدَ الْمَلِكُ . وَدَاوُدُ الْمَلِكُ وُلِدَ سُلَيْمَانَ مِنْ النَّبِيِّ لِأُورِيَا . وَسُلَيْمَانُ وُلِدَ رَحْبَعَامَ . وَرَحْبَعَامُ وُلِدَ أَبِيَا . وَأَبِيَا وُلِدَ آسَا . وَآسَا وُلِدَ هَهُوشَافَاطُ . وَهَهُوشَافَاطُ وُلِدَ يُورَامَ . وَيُورَامُ وُلِدَ عُزِّيَا . وَعُزِّيَا وُلِدَ يُوثَامَ . وَيُوثَامُ وُلِدَ أَحَازَ . وَأَحَازُ وُلِدَ حَزَقِيَا . وَحَزَقِيَا وُلِدَ مَنَسَّى . وَمَنَسَّى وُلِدَ آمُونَ . وَآمُونُ وُلِدَ يُوشِيَا . وَيُوشِيَا وُلِدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ . وَيَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وُلِدَ شَالْتِيئِيلَ . وَشَالْتِيئِيلُ وُلِدَ زَرَبَابِيلَ . وَزَرَبَابِيلُ وُلِدَ أَبِيهُودَ . وَأَبِيهُودُ وُلِدَ أَلِيَاقِيمَ . وَأَلِيَاقِيمُ وُلِدَ عَازُورَ . وَعَازُورُ وُلِدَ صَادُوقَ . وَصَادُوقُ وُلِدَ أَخِيَمَ . وَأَخِيَمُ وُلِدَ أَلْيُودَ . وَأَلْيُودُ وُلِدَ أَلْيَعَازَرَ . وَأَلْيَعَازَرُ وُلِدَ مَتَّانَ . وَمَتَّانُ وُلِدَ يَعْقُوبَ . وَيَعْقُوبُ وُلِدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى الْمَسِيحَ . فَجَمِيعُ الْأَجْيَالِ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيَالًا ، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيَالًا ، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيَالًا» (متى ١: ١٧-١٧) .

أما متى، كاتب سلسلة نسب المسيح، فقد كان في الأصل عشاراً يهودياً، اسمه العبراني لاوي، واسمه اليوناني متى، واسم أبيه حلفى، وكان عمله في خدمة الحكومة الرومانية يستلزم أن يكون صاحب معرفة، ولا سيما في الأمور المالية والتجارية، كما كان من ذوي البُسر المالي.

وتبدأ مقدمة بشارة متى بالقول: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم . إبراهيم ولد إسحق، وإسحق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته». ثم يذكر أربعين شخصاً من رجال ونساء آخرهم «يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يُدعى المسيح». وواضح أن متى يتابع سلسلة نسب المسيح من يوسف، خطيب العذراء مريم . بينما يملأ القارئ المتعجّل من مطالعة هذا الجدول، يدرك العاقل أهميته الفائقة، لأن فيه إيضاحات مهمة للأصل البشري، الذي منه تسلسل هذا الشخص العجيب الذي «صار جسداً وحلّ بيننا». ويسوع هو الإنسان الوحيد في التاريخ البشري الذي حفظ قيد تسلسله من أب البشر آدم . وهو الوحيد الذي - بالإضافة إلى جوهره الأسمى - تتوقف قيمته الإنسانية على سلسلة أجداده، لأن منها نعرف أنه ابن داود، المخلص المنتظر.

سلسلة نسب لوقا

«وَمَا أَبْتَدَأَ يَسُوعُ كَانَ لَهُ نَحْوُ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَهُوَ عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ ابْنُ يَوْسُفَ بْنِ هَالِي، بْنِ مَتَّثَاتَ بْنِ لَأْوِي بْنِ مَلِكِي بْنِ يِنَّا بْنِ يَوْسُفَ، بْنِ مَتَّثَاتِيَا بْنِ عَامُوصَ بْنِ نَاحُومَ بْنِ حَسَلِي بْنِ نَجَّايِ، بْنِ مَاتِّ بْنِ مَتَّثَاتِيَا بْنِ شَمْعِي بْنِ يَوْسُفَ بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يُوْحَنَّا بْنِ رِيْسَا بْنِ زَرْبَابَلِ بْنِ شَالْتَيْتَيْلِ بْنِ نِيرِي، بْنِ مَلِكِي بْنِ أَدِّي بْنِ قَصَمَ بْنِ أَلُودَامَ بْنِ عِيرِ، بْنِ يُوْسِي بْنِ أَلِيْعَارَزَ بْنِ يُوْرِيْمَ بْنِ مَتَّثَاتَ بْنِ لَأْوِي، بْنِ شِمْعُونَ بْنِ يَهُوذَا بْنِ يَوْسُفَ بْنِ يُونَانَ بْنِ أَلِيَاقِيْمِ، بْنِ مَلِيَا بْنِ مِيْنَانَ بْنِ مَتَّثَاتَا بْنِ نَائَانَ بْنِ دَاوُدَ، بْنِ يَسَى بْنِ عُوْبَيْدَ بْنِ بُوعَزَ بْنِ سَلْمُونَ بْنِ نَحْشُونَ، بْنِ عَمِّيْنَادَابَ بْنِ أَرَامَ بْنِ حَضْرُونَ بْنِ فَارِصَ بْنِ يَهُوذَا، بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيْمَ بْنِ تَارَحَ بْنِ نَاحُورَ، بْنِ سَرُوجَ بْنِ رَعُوْبَ بْنِ فَالَجِ بْنِ عَابِرَ بْنِ شَالِحَ، بْنِ قِيْنَانَ بْنِ أَرْفَكَشَادَ بْنِ سَامَ بْنِ نُوحَ بْنِ لَامَكَ،

بْنِ مَتُوشَالِحَ بْنِ أَخْتُوخَ بْنِ يَارِدَ بْنِ مَهْلَلِيْلَ بْنِ قَيْنَانَ، بْنِ أَنْوَشَ بْنِ شِيثِ، بْنِ آدَمَ،
أَبْنِ اللَّهِ» (لوقا ٣: ٢٣-٣٨).

وقد أورد لوقا في بشارته جدولاً آخر لنسب المسيح يختلف بعض الاختلاف عن الذي أورده متى . ولكننا نقول إن الجدولين متفقان في أن يوسف رجل مريم أم يسوع هو الحلقة الأخيرة فيهما . ويتفقان أيضاً في حلقات النسب بين إبراهيم وداود . ويتفقان في اسمي شالتييل وزربابل في وقت سبي بابل، لكنهما يختلفان اختلافاً فرح له المنتقدون . من هذا الاختلاف أن متى يقدم أسماء الأجيال من يسوع راجعاً إلى إبراهيم، وأما لوقا فإلى آدم . ويتبع متى سلسلة سليمان بن داود، أما لوقا فيتبع سلسلة ناثان بن داود . ويذكر متى أن يوسف (خطيب مريم) ابن يعقوب، أما لوقا فيجعله ابن هالي والد مريم، وكان اليهود أحياناً ينسبون الرجل لوالد زوجته (قارن ما حدث مع عائلة برزلاي عزرا ٢: ٦١ ونحميا ٧: ٦٣) . والحلقات في متى بين داود ويوسف تنقص كثيراً عنها في لوقا . فالأمر ظاهر أن بعض الحلقات متروكة، لأن كلمة «ابن» وكلمة «وَلَدَ» تردان أحياناً في هاتين السلسلتين بالمعنى الواسع، مثل القول إن يسوع ابن داود ابن إبراهيم، لأن متى يذكر أربع حلقات فقط في أيام القضاة بين راحاب وداود، مع أن المدة ٤٥٠ سنة . كما أن جدول لوقا يختصُّ بمريم، والآخر في متى يختص بيوسف، لأن بيان تسلسل الاثنين ضروري .

على أن البشيرين متى ولوقا يوضّحان أصل المسيح الإلهي، فمتى بعد أن يقول في كل الحلقات السابقة «فلان ولد فلان» لا يقول - كما كان يُنتظر - يوسف ولد يسوع، بل «يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع الذي يدعى المسيح» ولوقا يقول: «وهو على ما كان يُظنُّ: ابن يوسف» .

ولو كان بالجدولين ما يستحق الهجوم والمعارضة لفعل قادة اليهود ذلك من البدء، خصوصاً وأن تسلسل النسب يبرهن أن يسوع هو ابن داود المخلص الآتي. وصمّت اليهود عن مهاجمة سلسلتي متى ولوقا دليل على صحتها.

دروس من سلسلة النسب

يُستخلص من جدولي متى ولوقا من ذُكر اسم راعوث الموابية أن للفقراء وللأغراب عن الجنس الإسرائيلي نصيب في لائحة الشرف الملكي المسيحي. وأيضاً من اسم راحاب التي كانت قبلاً زانية، واسمي تامار وبشبع أن للأشرار التائبين توبة حقيقية محلاً في هذه القائمة الشريفة، مهما كان ماضيهم معيباً. فقد اعتنى المسيح بضعفاء القوم، وغفر لكثيرين من البعيدين عن الصلاح، وقال: «لَا يَحْتَاجُ الْأَصِحَّاءُ إِلَيَّ طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى» (متى ٩: ١٢) و «أَبْنُ الْإِنْسَانِ قَدْ جَاءَ لِكَيْ يَطْلُبَ وَيُخَلِّصَ مَا قَدْ هَلَكَ» (لوقا ١٩: ١٠).

ونجد محور الإنجيل كله في العبارة الجوهرية التي أوردها يوحنا في مقدمته «كان الكلمة الله. والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا».

وبما أن المصدر الوحيد لأخبار المسيح هو الإنجيل، وبما أن كتبة الإنجيل جميعاً متفقون على القول بلاهوته، يستلزم الإنصاف أن تُفسَّر حوادث حياته وفقاً للقول بلاهوته.

جبرائيل يبشر زكريا

«كَانَ فِي أَيَّامِ هِيرُودَسَ مَلِكِ الْيَهُودِيَّةِ كَاهِنٌ اسْمُهُ زَكَرِيَّا مِنْ فِرْقَةِ أَبِييَا، وَأَمْرَأَتُهُ مِنْ بَنَاتِ هَارُونَ وَأَسْمُهَا أَلِيصَابَاتُ. وَكَانَا كِلَاهُمَا بَارِّينَ أَمَامَ اللَّهِ، سَالِكِينَ فِي جَمِيعِ وَصَايَا الرَّبِّ وَأَحْكَامِهِ بِلا لَوْمٍ. وَلَمْ يَكُنْ لهُمَا وَلَدٌ، إِذْ كَانَتْ أَلِيصَابَاتُ عَاقِرًا. وَكَانَا كِلَاهُمَا مُتَقَدِّمِينَ فِي أَيَّامِهِمَا.

فَبَيْنَمَا هُوَ يَكْهَنُ فِي نَوْبَةِ فِرْقَتِهِ أَمَامَ اللَّهِ، حَسَبَ عَادَةَ الْكَهَنُوتِ، أَصَابَتْهُ الْقُرْعَةُ أَنْ يَدْخُلَ إِلَى هَيْكَلِ الرَّبِّ وَيُبَخِّرَ. وَكَانَ كُلُّ جُمْهُورِ الشَّعْبِ يُصَلُّونَ خَارِجًا وَقَتَ الْبُخُورِ. فَظَهَرَ لَهُ مَلَكُ الرَّبِّ وَإِقْفًا عَنْ يَمِينِ مَذْبَحِ الْبُخُورِ. فَلَمَّا رَأَهُ زَكَرِيَّا اضْطَرَبَ وَوَقَعَ عَلَيْهِ خَوْفٌ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: «لَا تَخَفْ يَا زَكَرِيَّا، لِأَنَّ طَلِبَتَكَ قَدْ سُمِعَتْ، وَأَمْرَأَتُكَ أَلِيصَابَاتُ سَتَلِدُ لَكَ ابْنًا وَتُسَمِّيهِ يُوْحَنَّا. وَيَكُونُ لَكَ فَرْحٌ وَانْتِهَاجٌ، وَكَثِيرُونَ سَيَفْرَحُونَ بِوِلَادَتِهِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ عَظِيمًا أَمَامَ الرَّبِّ، وَحَمْرًا وَمُسْكِرًا لَا يَشْرَبُ، وَمِنْ بَطْنِ أُمِّهِ يَمْتَلِئُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ. وَيَرُدُّ كَثِيرِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ إِلَهُهُمْ. وَيَتَقَدَّمُ أَمَامَهُ بِرُوحِ إِبْلِيَّا وَقُوَّتِهِ، لِيَرُدَّ قُلُوبَ الْآبَاءِ إِلَى الْآبَنَاءِ، وَالْعَصَاةَ إِلَى فِكْرِ الْأَبْرَارِ، لِكَيْ مَهَيَّئَ لِلرَّبِّ شَعْبًا مُسْتَعِدًّا». فَقَالَ زَكَرِيَّا لِلْمَلَكِ: «كَيْفَ أَعْلَمُ هَذَا، لِأَنِّي أَنَا شَيْخٌ وَأَمْرَأَتِي مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامِهَا؟» فَاجَابَ الْمَلَكُ: «أَنَا جِبْرَائِيلُ الْوَاقِفُ قُدَّامَ اللَّهِ، وَأُرْسَلْتُ لِأَكَلِّمَكَ وَأُبَشِّرَكَ بِهَذَا. وَهَا أَنْتَ تَكُونُ صَامِتًا وَلَا تَقْدِرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ، إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ هَذَا، لِأَنَّكَ لَمْ تُصَدِّقْ كَلَامِي الَّذِي سَيِّئْتُ فِي وَقْتِهِ» .

وَكَانَ الشَّعْبُ مُنْتَظِرِينَ زَكَرِيَّا وَمُتَعَجِّبِينَ مِنْ إِبْطَائِهِ فِي الْهَيْكَلِ. فَلَمَّا خَرَجَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكَلِّمَهُمْ، فَفَهَمُوا أَنَّهُ قَدْ رَأَى رُؤْيَا فِي الْهَيْكَلِ. فَكَانَ يَوْمَئِذٍ إِلَهُهُمْ وَيَقِي صَامِتًا.

وَمَا كَمِلَتْ أَيَّامُ خِدْمَتِهِ مَضَى إِلَى بَيْتِهِ . وَبَعْدَ تِلْكَ الْأَيَّامِ حَبِلَتْ أَلْيَصَابَاتُ أَمْرَأَتِهِ ،
وَأَخْفَتْ نَفْسَهَا حَمْسَةَ أَشْهُرٍ قَائِلَةً : « هَكَذَا قَدْ فَعَلَ بِي الرَّبُّ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا نَظَرْتُ إِلَيْ ،
لِيُنزِعَ عَارِي بَيْنَ النَّاسِ » (لوقا ١: ٥-٢٥) .

نُفَاجاً بِشُرُوقِ النُّجُومِ دُونَ عِلَامَاتٍ سَابِقَةٍ بِخِلَافِ شُرُوقِ الشَّمْسِ مَلِكَةِ الْأَنْوَارِ ،
فِي أَنْ طَلَاعَ الْفَجْرِ تَتَقَدَّمُهُ . هَكَذَا فَاجَأَ ظُهُورُ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ جَوْ التَّارِيخِ الْبَشَرِيِّ ، فَلَمْ
يَرِدْ خَبْرٌ سَابِقٌ لظُهُورِ إِبْرَاهِيمَ أَوْ مُوسَى أَوْ دَاوُدَ أَوْ إِيْلِيَا (بِاسْتِثْنَاءِ يُوْحَنَّا الْمَعْمَدَانِ) .
لَكِنْ ظُهُورُ الْمَسِيحِ سَيِّدِهِمْ - الَّذِي مِنْ جَمَلَةِ أَلْقَابِهِ الْعَدِيدَةِ لَقِبَ « شَمْسِ الْبَرِّ » - لَمْ يَكُنْ
فَجَائِيًّا ، لِأَنَّ النَّبَوَاتِ الْعَدِيدَةَ الْمُتَوَاصِلَةَ كَوْنَتْ فَجْرًا عَجِيبًا سَابِقًا لِمَجِيئِهِ . وَفِي الْوَقْتِ
ذَاتِهِ ، وَخَارِجًا عَنِ دَائِرَةِ هَذَا الْفَجْرِ ، كَانَ الظَّلَامُ الْأَخْلَاقِي وَالرُّوحِي قَدْ بَلَغَ أَشَدَّهُ
قَبِيلَ مَجِيئِهِ . فَجَاءَ هَذَا النُّورُ السَّمَاوِي الْفَائِقُ فِي وَقْتِ شِدَّةِ احْتِيَاجِ الْعَالَمِ وَشَوْقِ اتَّقْيَاهُ
إِلَيْهِ .

وَتَسْتَحِقُّ الْمَقْدَمَاتِ النَّبَوِيَّةِ الْقَدِيمَةَ السَّابِقَةَ لظُهُورِ الْمَسِيحِ أَنْ نَرَا جَعَهَا بِكُلِّ عِنَايَةٍ ،
لَكِنْ ضَيْقُ الْمَقَامِ يَضْطَرُّنَا أَنْ نَكْتَفِيَ بِالنَّبَوَاتِ وَالْأَدْلَةِ الَّتِي مِنْهَا عُرِفَ أَنَّ الْمَسِيحَ الْمُنْتَظَرَ
صَارَ عَلَى الْبَابِ .

كَانَتْ رَسَلُ السَّمَاءِ الْمَلَائِكِيَّةِ قَدْ احْتَجَبَتْ تَمَامًا عَنِ الظُّهُورِ لِلْبَشَرِ مَدَّةَ خَمْسِمِئَةٍ
سَنَةٍ ، لَكِنْ لَمَّا قَرُبَ تَأْنُسُ الْمَسِيحِ تَوَارَدَتْ بَعْدُدٍ أَوْفَرٍ وَمَجْدٍ أَمْبَى مِمَّا حَدَثَ فِي كُلِّ
الْأَزْمِنَةِ ، مِنْذُ الْخَلْقِ إِلَى الْآنِ ، لَكِي تُنْبِئَ بِقُرْبِ مَجِيءِ مَلِكِ الْمُلُوكِ وَرَبِّ الْأَرْيَابِ إِلَى
مِقَاطَعَتِهِ الْأَرْضِيَّةِ ، ظَاهِرًا بِهَيْئَةٍ بَشَرِيَّةٍ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْإِنْجِيلُ : « مَتَى أَدْخَلَ الْبِكْرَ إِلَى
الْعَالَمِ يَقُولُ : « وَنَتَسَجَّدُ لَهُ كُلُّ مَلَائِكَةِ اللَّهِ » (عبرانيين ١: ٦) هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ نَبِي
التَّوْرَةِ دَانِيَالُ : « سُلْطَانُهُ سُلْطَانُ أَبَدِيٍّ مَا لَنْ يَزُولَ ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لَا يَنْقَرِضُ » (دانيال
٧: ١٤) . فَلَاقْ أَنْ يَتَقَدَّمَ هَذَا الْمَلِكُ رَسَلٌ مِنْ أَمَامِ عَرْشِهِ السَّمَاوِيِّ ، يَبْشُرُونَ أَهْلَ الْعَالَمِ

بقدموه القريب . وملاً صوت هذه البشرية السماء، واهتزَّ له الجند العلوي قبلما سُمع في الأرض أو رنَّ في آذان بني آدم .

أصاب القردة زكريا أن يحرق البخور العطر على المذبح الذهبي في هيكل أورشليم فدخل خلف الستار الثقيل الذي حجبه عن أبصار الساجدين، ووقف أمام مذبح البخور يصلي، ودخان البخور ورائحته الزكية يصعدان نحو السماء . فرأى بغتة رئيس الملائكة جبرائيل العظيم، واقفاً عن يمين مذبح البخور، فاضطرب ووقع عليه خوف، لأن اضطراب الإنسان عندما يرى ملاكاً من السماء أمر طبيعي، مهما كانت درجة تقواه وصلاحه . فليس صالحٌ إلا ويعرف ذاته خاطئاً، والضمير الحي يجعل صاحبه جباناً في حضرة الأطهار، إذ يبكته على أقل الهفوات، وعلى التقصير عن الكمال التام، ويجعله يقشعراً عند مفاجأة الملاك له . لئلا يكون جاءه ليطالبه بحقوق الله عليه، أو ليجازيه على ذنوبه .

وكان آخر ظهور ملائكي قبيل هذا، ظهور جبرائيل ذاته منذ نحو خمسمئة سنة، وبذات غرضه الحالي - وذلك لدانيال، آخر الأنبياء العظام قبل المسيح . ظهر كرجل «لأبْساً كَتَاناً، وَحَقَوَاهُ مُتَنَطِّقَانِ بِذَهَبِ أَوْفَازٍ، وَجِسْمُهُ كَالزَّبْرِجَدِ، وَوَجْهُهُ كَمَنْظَرِ الْبَرْقِ، وَعَيْنَاهُ كَمِصْبَاحِي نَارٍ، وَذَرَاعَاهُ وَرِجْلَاهُ كَعَيْنِ النُّحَاسِ الْمَصْفُولِ، وَصَوْتُ كَلَامِهِ كَصَوْتِ جُمُهورٍ» (دانيال ١٠: ٥ و٦) .

انتدب الله جبرائيل ليكلّم زكريا لذات الغرض . وفي هذا دليل واضح على اهتمام السماء بمجيء المسيح إلى العالم . وحالما رأى زكريا جبرائيل، خاف فأسرع الملاك لتسكين روعه وقال له: « لا تخف » . ثم أعلمه بأن صلواته وصلاة زوجته أليصابات لأجل النسل قد استُجيبت، مع أن سنهما يجعل هذه الاستجابة مستحيلة في أعين البشر وأعينهما .

ثم أعطى جبرائيل لزكريا الاسم الذي يجب أن يطلقه على ولده . وأعلن له عن مستقبل ابنه أنه لا يسبب فرحاً وابتهاجاً لوالديه فقط، بل أيضاً لكثيرين غيرهما . وأنه يكون عظيماً، ليس في أعين الناس فقط بل أمام الله، إذ يمتلئ من الروح القدس الإلهي من أول أيام وجوده، ويكون للرب نذيراً عفيفاً طوال حياته . وينجح نجاحاً باهراً في العمل الوحيد الذي هو محور الاهتمام الإلهي في العالم، أي ردّ كثيرين إلى الرب إلههم .

وزاد جبرائيل لزكريا ما هو أعظم من ذلك، إذ قال له إن هذا الصبي الموعود به يكون المبشر بظهور المسيح الآتي، فيتقدم أمامه متمماً النبوة التي كان يتمسك بها كل يهودي تمسكاً شديداً، بأن إيليا يأتي قدام المسيح وهيء للرب شعباً مستعداً . قد بشر ملاك في القديم أكثر من مرة أحد الأبوين بولد سيولد لهما، لكن أمامنا المرة الوحيدة التي فيها بُشّر أبٌ بولدٍ تكون وظيفته أن يبشر بقدوم آخر أعظم منه جداً (الذي هو المسيح) وهذا دليلٌ على تفوق المسيح على كل البشر .

ولم يصدق زكريا هذه البشارة، مع أنه سمعها من جبرائيل رئيس الملائكة الواقف قدام الله، والمرسل منه لهذا الغرض الخصوصي، لأن الموانع الطبيعية كانت عظيمة جداً . لكننا نلوم زكريا لأنه يعلم جيداً ببشارة نظيرها جاءت للشيخين إبراهيم وسارة، وآمن إبراهيم أبُ المؤمنين بتلك البشارة . ولما لم يصدق زكريا، ضرب الله لسانه بالخرس، وتحددت مدة قصاصه هذا بتسعة أشهر، إلى أن ينظر بعينيه ويسمع بأذنيه البرهان الحسي الذي كان يطلبه على صدق قول الملاك .

ويسبب هذه المقابلة الغريبة بين الملاك وزكريا، طال انحجاب الكاهن عن الجمهور المصلّي خارجاً، والذي كان ينتظر الانصراف عند خروج الكاهن من وراء الستار ليعطيهم البركة «فتعجبوا من إبطائه» . لكن زاد عجبهم لما خرج إليهم عاجزاً عن النطق

بالبركة المفروضة عليه، أو عن إخبارهم بسبب إبطائه، فجعل يشير لهم ويومئ بقدر ما أمكنه «ففهموا أنه قد رأى رؤيا» .

ولما كان زكريا أميناً لخدمته لم يعتذر عن إكمالها بسبب ما جرى له، أو بسبب شوقه إلى أن يخبر امرأته في البيت، بل بقي حتى كملت أيام خدمته، وبعدها رجع إلى بيته .

وتصور انزعاج أليصابات العجوز الصالحة لما استقبلت زوجها زكريا في البيت عند رجوعه فاقداً قوتي النطق والسمع، ثم دهشتها عندما كتب أمامها ما أعلنه له الملاك جبرائيل . ولا بد أنه أنذرهما أيضاً كتابةً أن لا تشك في هذا الكلام لئلا يقع عليها العقاب الذي وقع عليه هو .

انشغل فكر زكريا وأليصابات بكلام البشارة عن مجيء المسيح، الذي يبشر به ابنهما يوحنا، ويجهز الطريق له، والذي سمّاه الملاك «الرب» - ولا بدّ أنهما تساءلا: متى يظهر وأين وكيف؟ عن قريب سيأخذان العلم بذلك، ليس من الملاك جبرائيل، بل من نسيبةٍ لهما، سوف تصبح أشهر نساء التاريخ البشري وأسعدهن .

لا يسلمّ العقل أن المعجزة الفائقة التي هي تأنس المسيح الابن الأزلي تحدث دون أن تحوطها معجزات أخرى ترافقها وتثبتها، فمعجزة البشارة لزكريا ثم قصاصه، وحبْلُ أليصابات العجيب، هي مقدمة المعجزات التي أحاطت بولادة المسيح ابن مريم .

وهذه كلها تسهّل تصديق تلك المعجزة الأعظم التي تتبعها قريباً - وهي ولادة المسيح من عذراء، فتتحقّق فيه النبوات القديمة العديدة، وتتم الرموز الكثيرة الدقيقة . وليس في التاريخ البشري شخصٌ غيره تنطبق عليه تلك النبوات أو تلائمه تلك الرموز . كذلك حقّ الحكمُ بأن يسوع الناصري هو المخلص الذي تنبأ أنبياء التوراة بمجيئه . ويتّضح لكل من يراجع توراة اليهود بإمعان، أن المسيح الموعود به في ذلك الكتاب الموحي به ليس كأحد الأنبياء، مجرد بشر، بل هو شخص إلهي .

جبرائيل يبشر مريم

«وَفِي الشَّهْرِ السَّادِسِ أُرْسِلَ جِبْرَائِيلُ الْمَلَاكُ مِنَ اللَّهِ إِلَى مَدِينَةِ مِنَ الْجَلِيلِ اسْمُهَا نَاصِرَةٌ، إِلَى عَذْرَاءٍ مَخْطُوبَةٍ لِرَجُلٍ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ اسْمُهُ يُوسُفُ. وَأَسْمُ الْعَذْرَاءِ مَرْيَمُ. فَدَخَلَ إِلَيْهَا الْمَلَاكُ وَقَالَ: «سَلَامٌ لَكَ أَيَّتُهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا! الرَّبُّ مَعَكَ. مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ». فَلَمَّا رَأَتْهُ أَضْطَرَبَتْ مِنْ كَلَامِهِ، وَفَكَّرَتْ مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التَّحِيَّةُ! فَقَالَ لَهَا الْمَلَاكُ: «لَا تَخَافِي يَا مَرْيَمُ، لِأَنَّكَ قَدْ وَجَدْتَ نِعْمَةً عِنْدَ اللَّهِ. وَهَا أَنْتِ سَتَحْبِلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا وَتُسَمِّيَنَّهُ يُسُوعَ. هَذَا يَكُونُ عَظِيمًا، وَأَبْنُ الْعَلِيِّ يُدْعَى، وَيُعْطِيهِ الرَّبُّ الْإِلَهَ كُرْسِيَّ دَاوُدَ أَبِيهِ، وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَهُوذاَ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَا يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ». فَقَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلَاكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلًا؟» فَأَجَابَ الْمَلَاكُ وَقَالَ لَهَا: «الرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكَ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكَ، فَلِذَلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكَ يُدْعَى ابْنُ اللَّهِ. وَهُوَذَا أَلْيَصَابَاتُ نَسَبَتِكَ هِيَ أَيْضًا حَبْلُ بَابِنٍ فِي شَيْخُوخَتِهَا، وَهَذَا هُوَ الشَّهْرُ السَّادِسُ لِيَتْلِكَ الْمَدْعُوعَةُ عَاقِرًا، لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرٌ مُمَكِّنٌ لَدَى اللَّهِ». فَقَالَتْ مَرْيَمُ: «هُوَذَا أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ. لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ». فَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا الْمَلَاكُ» (لوقا ١: ٢٦-٣٨).

زار رئيس الملائكة جبرائيل الكاهن الجليل زكريا، وبشره بولادة يوحنا من زوجته العاقر أليصابات. وكان زكريا باراً ومكرماً ورئيساً بين قومه. فأَيُّ عظيمٍ أعظم من هذا الكاهن يزوره جبرائيل بعد ذلك؟ هل يزور أحد الملوك والأمراء، أو شهيراً من الرؤساء، أو حكيماً من العلماء أو عظيماً من الأغنياء؟ كلا! بل زار فتاة عذراء من بيت جماعة فقراء، لا أهمية سابقة لها عند قومها فوق سائر عذارى البلاد، ولا ذُكر لها

قبل زيارة جبرائيل، ولا أهمية لها مطلقاً لولا هذه الزيارة. أُرسِل إليها ليشهرها أن الله قد اصطفاها في قضائه الأزلي ليدخل العالم الوحيد إلى العالم بواسطتها .

أنعم الله على هذه العذراء بأن ألبسها أعظم شرفٍ نالته امرأة في الزمان، وهو شرف لا تساويه ألقاب الأمراء وأوسمتهم ولا تيجان الملوك وعظمتهم . لذلك هناها جبرائيل بقوله: «سَلَامٌ لَكَ أَيُّهَا الْمُنْعَمُ عَلَيْهَا» (لوقا ١: ٢٨) . قدم الله باختياره مريم برهاناً للجنس البشري بأن العظمة الحقيقية لا تنشأ عن المركز والبيئة، ولا عن الأصل والأجسام، ولا حتى من العقول السامية، بل من النفوس الطاهرة .

أغلب الظن أن مريم كانت وحدها في بيت أبيها لما فاجأها الملاك وألقى عليها السلام . وربما كانت هذه التقية تصلي في تلك الساعة، لأن اليهودي التقى كان يختلي ثلاث مرات في النهار للصلاة . فكانت تحية جبرائيل لهذه الصبية الفقيرة أبلغ من تحيته للكاهن الموقر زكريا، إذ قال له: «لا تخف يا زكريا» . أما لمريم فقال: «سلامٌ لك أيتها المنعم عليها . مباركة أنت في النساء» . وفي الوقت ذاته ظهر في كلامه أن الامتياز الذي نالته فوق سائر النساء كان إنعاماً لا استحقاقاً .

اضطربت هذه العذراء الطاهرة لرؤية الملاك، وتخيَّرت لتحيته، فطمأنها حالاً كما فعل مع زكريا بقوله لها: «لا تخافي» ثم ناداها باسمها «يا مريم» . وكرر تهنئتها، ثم أضاف خبراً لم تتصوره ولا حلمت به قبلاً، وهو أنها ستحبل حبلاً أعجب من حبل نسيبتها أليصابات، وتلد ابناً بقوة الروح القدس وهي عذراء . وهذا الابن لا يكون فقط عظيماً كابن أليصابات بل «يُدعى ابن الله» (لوقا ١: ٣٢) ولأنها من نسل داود سيكون ابنها الخلف الأعظم لداود كملكٍ مُلكه أبدي .

ربما شاركت مريم سائر النساء من نسل داود في شيء من الآمال بأنها ستلد المسيح . ولا سيما أنها مخطوبة لرجل صالح هو أيضاً من نسل داود، فيأتيها هذا الإمتياز المشتهى بطريقة طبيعية بعد زواجها من خطيبها يوسف . فلما أعلن لها الملاك

بأن حبَلها يكون في الحال، وقَبْل أن تتزوج، اضطربت، وكان اضطرابها طبيعياً وشريفاً، إذ رأت أن عليها أن تدافع عن عفتها، وتستوضح من الملاك كيف يمكن تصديق قوله، فكانت حشمتها إكليل فضائلها، وتواضعها تاج جمالها.

لقد اصطفى الله مريم من بين كل عذارى شعبها بعد أن أسس في روحها الاستعداد لهذا المقام الجديد الذي تفوق رفعتُه الوصف، ثم حدّد لها إنعامه لتكون الأم للطبيعة البشرية في المسيح الذي هو أيضاً ابن العلي. والله دوماً يؤهّل الذين ينتقيهم لما ينتدبهم إليه، فأسبغ على مريم بغزارة إنعاماته المتواصلة، ليتمكنها من القيام بما يُطلب منها في أحوالها الجديدة.

وقد جاوب جبرائيل مريم بأن الروح القدس محلٌّ عليها، وأن قوة العلي تظللها فتلد ابن الله. . ولم يخفّ جواب الملاك شيئاً من غرابة بشارته، ولم يقرب التصديق للعقل البشري، واكتفى بأن أكّد لها أن حبَلها يكون بفعل الروح الخالق عز وجل، وعلى صورة استثنائية لا مثيل لها من قبل أو من بعد. وقال لها ثانية إن الذي تلده سيُدعى «ابن الله». لكن لئلا يؤخذ هذا الاسم العظيم بالمعنى المجازي الذي يسوغ استعماله لمجرد بشر، ولأنه يولد من الروح القدس سمّاه «القدوس» وهو اسمٌ لا يُعطى مطلقاً لبشر أو لملاك.

وهنا كان ردُّ فعل مريم لكلام الملاك مختلفاً عن ردِّ فعل زكريا، فقد شكّ زكريا في بشارة الملاك له، لكن مريم طلبت إيضاح طريقة إتمام الوعد الإلهي فقط، فأعطاه الملاك علامةً مفرحة، هي خير المعجزة التي حصلت لأليصابات البعيدة عنها في جانب البلاد الآخر. ثم ختم جبرائيل خطابه بتذكير مريم أن ليس شيءٌ غير ممكن لدى الله. وهل يعسر على من أوجد الكون من العدم أن يوجد ابناً لمريم دون أب بشري؟ ومع أن كلام الملاك لمريم لم يتضمن شيئاً سهّل عليها التصديق إلا أنها سلّمت تماماً وصدقت يقيناً، إذ قالت والملاك منصرف: «هوذا أنا أمة الرب. ليكن

لي كقولك». . سلّمت تسليماً أعمى لله . وهذا عين الحكمة وكمال الفخر، بينما التسليم الأعمى للبشر يكون جهالة وذللاً .

فما أعظم ابتهاج هذه العذراء الطاهرة في هذه الساعة المباركة . ها المسيح رجاؤها ورجاء شعبها ورجاء العالم على الباب . فكيف لا تبتهج، وقد اختارها الله من بين جميع المؤمنات الإسرائيليات في نسل داود لتلد المسيح؟ فهل لابتهاجها حدٌ؟

لكن ليس في الدنيا فرح كامل . فلا بد من امتزاج بعض الخوف مع الابتهاج في صدرها الطاهر . إنها تخاف غضب خطيبتها وانفصاله عنها متى ظهر سرُّها . وليس لديها من وسيلة لإثبات الحقيقة التي لا يمكن أن يصدقها أحدٌ على الإطلاق!

ثم أن صلاحها الممتاز يضيف خوفاً آخر شريفاً . لأنها رأت نفسها غير مستحقة لهذا الامتياز الفائق، فخافت أن تعجز عن القيام بما يستدعيه مقامها الجديد كوالدة المسيح . ولا ريب أنها ضاعفت التجاءها إلى المرحم الإلهية ليفعل لها ربُّها في مشكلتها الجديدة ما ليس في استطاعتها أو استطاعة غيرها من البشر .

حيرة يوسف

«أَمَّا وَلَادَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هَكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرِيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وَوُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ . فَيُوسُفُ رَجُلٌ إِذْ كَانَ بَارًّا، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُشْهِرَهَا، أَرَادَ تَخْلِيَتَهَا سِرًّا . وَلَكِنْ فِيمَا هُوَ مُتَفَكِّرٌ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ، إِذَا مَلَكَ الرَّبُّ قَدْ ظَهَرَ لَهُ فِي حُلْمٍ قَائِلًا: «يَا يُوسُفُ ابْنَ دَاوُدَ، لَا تَخَفْ أَنْ تَأْخُذَ مَرِيَمَ امْرَأَتَكَ، لِأَنَّ الَّذِي حُبِلَ بِهِ فِيهَا هُوَ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ . فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ، لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ» . وَهَذَا كُلُّهُ كَانَ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «هُوَذَا الْعَذْرَاءُ حَبِلَتْ وَتَلِدُ ابْنًا، وَتَدْعُوْنَ اسْمَهُ عِمَّا نُوْبِيلَ» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: اللَّهُ مَعَنَا) . فَلَمَّا اسْتَيْقِظَ يُوسُفُ

مِنَ النَّوْمِ فَعَلَ كَمَا أَمَرَهُ مَلَاكُ الرَّبِّ، وَأَخَذَ أَمْرَاتَهُ. وَلَمْ يَعْرِفْهَا حَتَّى وَلَدَتْ أَبْنَاهَا الْبِكْرَ. وَدَعَا اسْمَهُ يَسُوعَ» (متى ١٨: ١-٢٥).

ماذا كان تفكير يوسف خطيب مريم، بعد أن عرف أن خطيبته حامل؟

لسنا نعرف كيف عرف يوسف سير خطيبته مريم، ولكننا نعلم أنه وقع كما وقعت هي في خوف عظيم بسبب خطورة كلا الأمرين اللذين اضطرَّ أن يختار بينهما.

في حبه الصادق يودُّ من كل قلبه تصديق رواية مريم عن بشارة الملاك، لولا الصعوبة الكلية في ذلك. واختباره صفاتها الممتازة يجعله لا يظن فيها السوء.

ولأنها خطيبته يجب أن يحميها بكل قوته من كل كدر وضرر. فلو وَقَّع عليها أخف درجات القصاص بتركها جهاراً، وكانت روايتها صادقة، فإنه بذلك يظلمها ظلماً فاحشاً. ثم أيُّ شرفٍ يكون له أن يولد المسيح العظيم في بيته؟

ومن الوجه الآخر لأنه «رجل بار» يحافظ فوق كل شيء على احترام الناموس الإلهي والوصايا المقدسة، والشرف والصيت الحسن، يكون عليه أن يوقَّع على مريم عقاباً بحسب نصوص الشريعة، فما أعظم حيرة يوسف واضطرابه. إلا أنه بعد التروي الكافي ساقه حبه وشهامته إلى اختيار اللطف درجات القصاص، إذ قيل إنه «أراد تخليتها سراً».

وهنا تدخلت عناية الله الذي لا يغفل عن أصغر الأمور وأحقرها في عالمه الواسع. مرة أخرى نرى اهتمام السماء بأهل الإيمان على الأرض، فقد صدر الأمر الإلهي لأحد الملائكة (لعله جبرائيل) أن يزور يوسف ليلاً، فظهر له في حلم وأعلن له أن الذي حُبِل به في مريم هو من الروح القدس، ولذلك فالاقتران بها أوجب من الافتراق عنها. إذ ما كان يحسبه للآن عاراً عليهما، هو بالحقيقة أعظم فخر لهما. ومثل ذلك كثير من العار الذي يتحملة رجال الله، من الذين يجهلون الحقائق.

وكرر الملاك ليوسف ما أوصى به مريم: أن يعطي ابنها، متى وُلد، اسم «يسوع» لأن الحق الأول في تسمية المولود يكون للرجل، فيجب أن يعرف يوسف أيضاً إرادة الله بخصوص هذا الاسم، لكي تتحقق تسمية الصبي بالاسم الذي يعلن وظيفته الحُصوصية ويوافقها.

واسم يسوع ويشوع اسم واحد، وهو اسم قديم من أكرم الأسماء عند اليهود، ومعناه مخلص. فهو أسمى الأسماء البشرية، لأنه يدل على أسمى عمل يُعمَل على الأرض وهو تخليص البشر من خطاياهم. فالذي اسمه يسوع (أي مخلص) هو الطبيب الشافي الذي يخلص من داء الخطية الوبائي القتال المستولي على جميع بني البشر.

كان اليهود يحدثون أطفالهم بمسيح يأتي من سبط يهوذا ومن بيت داود ليخلصهم من مصائب هذا الدهر، كالفقر والمرض والتعب والذل، ومن سلطة الأعداء. وكان انتظارهم هذا سبب ثورات دموية أثارها مسحاء كذبة بدافع التهؤس الوهمي والطموح الشخصي أو الطمع المادي. وكانت هذه الثورات تأتي عليهم دائماً بالوبال. وقد نفى كلام الملاك هذه التخيُّلات الذميمة، وأعلن حقيقة وظيفة المسيح الموعود به وعمله. وذلك أعظم جداً من كل ما كانوا يتصورونه، وهكذا تحققت نبوة إشعياء النبي بأن المسيح سيولد من عذراء، وأنه بسبب طبيعته العجيبة يُسمَّى «عمانوئيل» ومعناه «الله معنا» (إشعياء ٧: ١٤).

وأطاع يوسف أمر ملاك الرب وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر. فبناء عليه عرف الجميع أن يسوع هو ابن يوسف كما أنه ابن مريم، وبهذا صان شرفه وشرف مريم ومولودها، كل مدة سكنهم في الناصرة. فما أعظم الجائزة التي نالها يوسف البار بسبب اختياره خطيبة ذات خُلُق، على رغم فقرها المادي، ثم بسبب

طاعته للأمر الإلهي - على رغم صعوبة هذه الطاعة دون برهان حسي - آمن بالله كما آمن جده إبراهيم فحسب له براً.

مريم تزور أليصابات

«فَقَامَتْ مَرْيَمُ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ وَذَهَبَتْ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْجِبَالِ إِلَى مَدِينَةِ يَهُوذَا، وَدَخَلَتْ بَيْتَ زَكَرِيَّا وَسَلَّمَتْ عَلَى أَلِيصَابَاتَ. فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيصَابَاتُ سَلَامَ مَرْيَمَ ارْتَكَضَ الْجَيْنُ فِي بَطْنِهَا، وَامْتَلَأَتْ أَلِيصَابَاتُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ: «مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النَّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ بَطْنِكِ! فَمِنْ أَيِّنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِي أُمَّ رَبِّي إِلَيَّ؟ فَهَؤُذَا حِينَ صَارَ صَوْتُ سَلَامِكِ فِي أُذُنِي ارْتَكَضَ الْجَيْنُ بِأَبْتِهَاجٍ فِي بَطْنِي. فَطُوبَى لِلَّتِي آمَنَتْ أَنْ يَمِّمَ مَا قِيلَ لَهَا مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ» (لوقا ١: ٣٩-٤٥).

ذهبت مريم في تلك الأيام لزيارة أليصابات، لترى بعينها صحة خير الملاك عن حبلها العجيب في شيخوختها. فإن صحة قول جبرائيل لزكريا يزيد يقينها بأن قوله لها صحيح. فضلاً عن ذلك، فهي ترغب في تهنئة أليصابات والاشترار معها في أفراحها الجديدة، بسبب حفظها الممتاز. ثم أنها تغتنم هذه الفرصة الحسنة للاستفادة من نسيبتها بعد أن تكشفت لها سرُّها العميق.

استغرقت الرحلة من الناصرة إلى مدينة يهوذا خمسة أيام، وهناك وجدت مريم أليصابات في الشهر السادس من حبلها العجيب. وقد اشتهر أمرها الآن بين قومها فزال عنها عار العقم. وبسبب المعجزة السارة التي حدثت معها، نالت كرامة عظيمة، كأحد القديسين المختارين من الله، وامتلات ابتهاجاً جديداً نتيجة لآمالها الجديدة. ولما ألفت مريم سلامها على أليصابات وهنأها لما نالته من الالتفات الإلهي، تحرَّك في رحم أليصابات الطفل الذي لم يولد بعد. فالتحذت ذلك دليلاً على أن هذه الزيارة غير المنتظرة هي ممن سوف تكون والدة المسيح المنتظر، لأن الروح القدس حلَّ عليها بقوة

وأثار عقلها وأطلق لسانها، فهتفت بصوت عظيم، وكررت حرفياً تهنئة الملاك السابقة لمريم في بيتها في الناصرة. وأضافت القول: «ومباركة ثمرة بطنك». ثم طوّبت مريم على الإيمان الذي أظهرته عندما بشرها الملاك.

نرى في تهنئة أليصابات لمريم تواضعاً جميلاً، وإلهاماً روحياً سامياً، لأنها قالت: «من أين لي أن تأتي أمُّ ربي إليّ؟». فقد انعكست آية الاحترام. أليصابات في مقامها كامرأة كاهن جليل، وفي سنّ الشيخوخة، وفي منزلة الإكرام الإلهي الفائت، تقدّم الآن احتراماً كاملاً لفتاة فقيرة لم يعرف لها أحدٌ بعد امتيازاً إلا في حسن الصفات! ومن قولها: «أم ربي» عرفنا أن هذا الاحترام لم يكن لاستحقاق في مريم، بل إكراماً للذي سوف تلده، واعترافاً بمقامه الإلهي. وهذا قول كبير جداً من فم امرأة يهودية فهيمة تقية مثل أليصابات، لا يمكن أن تقوله إلا لأن الروح القدس الحالّ فيها قد ألهمها به.

«قَالَتْ مَرْيَمُ: «تُعْظَمُ نَفْسِي الرَّبِّ، وَتَبْتَهِجُ رُوحِي بِإِلَهِ مُخْلِصِي، لِأَنَّهُ نَظَرَ إِلَى اتِّضَاعِ أُمَّتِهِ. فَهُوَذَا مُنْذُ الْآنَ جَمِيعُ الْأَجْيَالِ تَطُوبُّونِي، لِأَنَّ الْقَدِيرَ صَنَعَ بِي عَظَائِمَ، وَأَسْمُهُ قُدُّوسٌ، وَرَحْمَتُهُ إِلَى جِيلِ الْأَجْيَالِ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَهُ. صَنَعَ قُوَّةً بِذِرَاعِهِ. شَتَّتَ الْمُسْتَكْبِرِينَ بِفِكْرِ قُلُوبِهِمْ. أَنْزَلَ الْأَعْرَاءَ عَنِ الْكِرَاسِيِّ وَرَفَعَ الْمُتَضْعِعِينَ. أَشْبَعَ الْجِيَاعَ خَيْرَاتٍ وَصَرَفَ الْأَغْنِيَاءَ فَارِغِينَ. عَضَدَ إِسْرَائِيلَ فَتَاهُ لِيَذْكُرَ رَحْمَةً، كَمَا كَلَّمَ آبَاءَنَا. لِإِبْرَاهِيمَ وَنَسَلِهِ إِلَى الْأَبَدِ» (لوقا ١: ٤٦-٥٥).

وبعد أن أكملت أليصابات تسبيحتها حلّ الروح القدس على مريم أيضاً، فترنّمت بنشيد ارتجالي، يُعدُّ بين أشعار الإنجيل القليلة، أجملها وأسمها، إذ تضاهي هذه الترتيلة أفخر مزامير جدها داود، كما أنها تبين ما جملها الله به من الذكاء العقلي والشعور الروحي. في هذا النشيد تذكّرنا بمريم أخت موسى التي ترنّمت بعد عبور بني إسرائيل البحر الأحمر. وهجّة مريم العذراء في هذه الترنيمة بعيدة عن التعظّم وعامرة بالتواضع. فهي تشعر الآن بصغرها أكثر من قبل، وتبين أن ليس هي بل

الرب هو الذي تعظّم بهذا العمل . تعترف في فاتحة ترنيمتها بأنها كغيرها تحتاج إلى مخلص، وأنها قد لجأت إلى الله لأجل خلاصها الشخصي . فلا يُنتظر منها أن تخلص الآخرين .

قالت مريم: «تعظّم نفسي الرب» فهي تشعر بعدم استحقاقها لهذا الإنعام الإلهي، فقد اختارها الرب رغم وضاعة منزلتها، ورفعها إلى أوج العظمة بإنعامه الإلهي . وهي أول من شعر واعترف بهذا الإنعام، فقالت: «إن الرب نظر إلى اتضاع أمّته، لأن القدير صنع بي عظام» .

ولقد برهنت هذه الكلمات على عظمة مريم، لأنها لم تصنع معجزة كالرسل والأنبياء وغيرهم من القديسين، ولم يُذكر لها كلام ذو شأن بعد هذا الحادث، ولا قدّم لها إكرام خصوصي . وبعد قيامة المسيح سكت الوحي عنها تماماً، إلا في ذكرٍ بسيطٍ ساواها بغيرها، أنها كانت ضمن ١٢٠ تلميذاً اجتمعوا لأجل الصلاة في العلية .

يجب أن نتعلم من مثال إنكار الذات في مريم التقية . حتى في ساعة أعظم ارتفاعها، قالت: «واسمه قدوس» فقد كان كل افتكارها في الرب، ابتهاجاً بما صنع . لقد أعلنت أن الله لا يجاي بالوجوه، ويعمل بفكره الإلهي الذي يخالف أفكار البشر «يُنزل الأعرّاء عن الكراسي ويرفع المتّضعين» . يُغني الفقراء ويُفقر الإغنياء . يرفض الذين يظنون أنهم يستحقون التفاتة الخصوصي، ويقبل الذين يُحسبون غير مستحقين . «هو إلهٌ يحفظ العهد والرحمة إلى جيل الأجيال للذين يتقونه» . فيحقُّ للكنيسة المسيحية أن تفتخر بتسبحة مريم هذه، وتحسبها أنفس الترنيمات الإنجيلية .

ولادة المسيح

«وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ صَدَرَ أَمْرٌ مِنْ أَوْغُسْطُسَ قَيْصَرَ بِأَنْ يُكْتَتَبَ كُلُّ الْمَسْكُونَةِ. وَهَذَا الْأَكْتِتَابُ الْأَوَّلُ جَرَى إِذْ كَانَ كِيرِينْيُوسُ وَالِي سُورِيَةَ. فَذَهَبَ الْجَمِيعُ لِيُكْتَتَبُوا، كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَدِينَتِهِ. فَصَعِدَ يُوسُفُ أَيْضًا مِنَ الْجَلِيلِ مِنْ مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ، إِلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ الَّتِي تُدْعَى بَيْتَ لَحْمٍ، لِكَوْنِهِ مِنْ بَيْتِ دَاوُدَ وَعَشِيرَتِهِ، لِيُكْتَتَبَ مَعَ مَرْيَمَ أَمْرَاتِهِ الْمُخْطُوبَةِ وَهِيَ حُبْلَى. وَبَيْنَمَا هُمَا هُنَاكَ تَمَّتْ أَيَّامُهَا لِتَلِدَ. فَوَلَدَتْ ابْنَهَا الْبِكْرَ وَقَمَطَتْهُ وَأَضْجَعَتْهُ فِي الْمَذُودِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لهُمَا مَوْضِعٌ فِي الْمَنْزِلِ» (لوقا ٢: ١-٧).

كانت مريم في بيت يوسف مدة أشهر الحمل. وقُرِبَت أيامها لتلد وهما في وطنهما الناصرة، لكن نبوة كتبها ميخا النبي قبل هذا الوقت بنحو سبعماية سنة قالت إن المسيح يولد في بيت لحم (ميخا ٥: ٢)، وهي بعيدة عن الناصرة.

يقول المسيح إن السماء والأرض تزولان، ونقطة واحدة من قول الله لا تزول (متى ٢٤: ٣٥). وقال النبي إشعياء: «فَتَشُوا فِي سَفَرِ الرَّبِّ وَأَقْرَأُوا. وَاحِدَةً مِنْ هَذِهِ لَا تُفْقَدُ. لِأَنَّ قَمَهُ هُوَ قَدْ أَمَرَ، وَرُوحَهُ هُوَ جَمَعَهَا» (١٦: ٣٤).

فأَيُّ دافع يكفي ليسوق يوسف ومريم من الناصرة إلى بيت لحم محتملين مشقة سفر أربعة أو خمسة أيام في أول فصل الشتاء، ومريم على وشك الولادة؟

أن الله يستخدم لإتمام مشيئته - ليس الملائكة فقط - بل الملوك أيضاً. ألم يقل الحكيم: «قَلْبُ الْمَلِكِ فِي يَدِ الرَّبِّ كَجَدَاوِلِ مِيَاهٍ، حَيْثُمَا شَاءَ يُمِيلُهُ؟» (أمثال ٢١: ١). فسخر الله أعظم ملوك الأرض ليتمم النبوة المتعلقة بمحل ولادة المسيح، وكلف أوغسطس قيصر الإمبراطور الروماني أن يأمر بإحصاء عمومي لرعاياه. ومراعاة

لمطالب الشعب اليهودي سمح بأن يؤخذ الإحصاء عندهم في الوطن الأصلي لكل سبط وعائلة، حفظاً للأنساب في محل سكنهم، بغض النظر عن موطنهم الأصلي. وبما أن يوسف ومريم كانا من نسل داود، لذلك اضطررا أن يذهبا للإحصاء الجديد في بيت لحم، مدينة داود.

الولادة في بيت لحم

في مدة الألف سنة، منذ عهد داود تفرع وتفرق في أنحاء العالم عددٌ غفير من سلالة داود الملكية، وازدحمت بيت لحم بعودة الكثيرين منهم في وقت واحد لأجل الإحصاء، فلم يجد يوسف ومريم مكاناً لهما في الفندق العمومي، ولم يقبلهما أحد في بيته، لأن فقرهما الظاهر حال دون ذلك. وزد على ذلك أن أهل اليهودية كانوا يزدرون بالجليليين الذين كان يوسف ومريم منهم، فبات يوسف ومريم في إصطبل الفندق.

وبينما هما في الإصطبل تمّت أيام مريم لتلد. فولدت ابنها البكر وقمطته بالقليل المتيسّر لدهما، وأضجعتة في المذود لعدم وجود سرير تضعه فيه. . فأى فقر أعظم من هذا؟ لكن هذا يوافق القصد الإلهي في التأنس لأجل إثبات الحب العجيب الذي تنازل إلى هذه الدرجة بقصد تخليص الخطاة.

لم يشعر أحدٌ بولادة هذا الطفل سوى مريم ويوسف، بينما شعر الجميع بالمنشور القيصري الذي ساق هذا الجمهور إلى بيت لحم، فاهتمّ جميع الناس به وتحدثوا عنه من كبيرهم إلى صغيرهم. أما اليوم فالأمر بالعكس. لقد نسي الناس منشور القيصر تماماً، لولا اقترانه بولادة هذا الطفل، وصار سؤال البشر جميعاً لا عن ذلك المنشور، بل عن هذا المولود ومنزله الوضيع. ويتقاطر اليوم جميع المتمدنين، لا إلى قصر أوغسطس، بل إلى مذود المسيح.

فلنتأمل في هذا المذود ونسأل: هل ذلك الفقير هو ذات الشخص الذي نراه الآن بعد ألفي سنة، موضوع عبادة أعظم ملوك الأرض وأغنى سكانها وأشهر علمائها؟ إنهم يفتخرون أن يسجدوا أمام صليبيه، وأن ينتسبوا إليه، وأن يخضعوا لتعاليمه. والحق يُقال إننا نرى فيه وهو ابن يوم واحد موضوعاً لمزيد الإحترام الحبي، لأنه آدم الثاني داخلاً إلى العالم كآدم الأول دون أب بشري، ودون خطية أو شبه خطية، لكي يُصلح ما أفسده آدم الأول بسقوطه، ويجدد نسلأً روحياً، ويُعيد الفردوس أخيراً إلى عالمان الحزين.

الملائكة يعلنون الخبر للرعاة

«وَكَانَ فِي تِلْكَ الْكُورَةِ رُعَاةٌ مُتَبَدِّينَ يَحْرُسُونَ حِرَاسَاتِ اللَّيْلِ عَلَى رَعِيَّتِهِمْ، وَإِذَا مَلَكَ الرَّبِّ وَقَفَ بِهِمْ، وَجَدُّ الرَّبِّ أَضَاءَ حَوْلَهُمْ، فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا. فَقَالَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: «لَا تَخَافُوا. فَهِيَ أَنَا أُبَشِّرُكُمْ بِفَرَحٍ عَظِيمٍ يَكُونُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَكُمْ الْيَوْمَ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ مُخَلَّصٌ هُوَ الْمَسِيحُ الرَّبُّ. وَهَذِهِ لَكُمْ الْعَلَامَةُ: تَجِدُونَ طِفْلاً مُقْمَطًا مُضَجَعًا فِي مِذْوَدٍ.»

وظَهَرَ بَعْتَةً مَعَ الْمَلَائِكَةِ جُمْهُورٌ مِنَ الْجُنْدِ السَّمَاوِيِّ مُسَبِّحِينَ اللَّهَ وَقَائِلِينَ: «الْمَجْدُ لِلَّهِ فِي الْأَعَالِي، وَعَلَى الْأَرْضِ السَّلَامُ، وَبِالنَّاسِ الْمُسَرَّةُ.»

وَلَمَّا مَضَتْ عَنْهُمْ الْمَلَائِكَةُ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ الرَّعَاةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لِنَذْهَبِ الْآنَ إِلَى بَيْتِ حَمٍ وَنَنْظُرَ هَذَا الْأَمْرَ الْوَاقِعَ الَّذِي أَعْلَمْنَا بِهِ الرَّبُّ.» فَجَاءُوا مُسْرِعِينَ، وَوَجَدُوا مَرِيَمَ وَيُوسُفَ وَالطِّفْلَ مُضَجَعًا فِي الْمِذْوَدِ. فَلَمَّا رَأَوْهُ أَخْبَرُوا بِالْكَلَامِ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ عَنْ هَذَا الْوَقْعِ. وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوا تَعَجَّبُوا مِمَّا قِيلَ لَهُمْ مِنَ الرَّعَاةِ. وَأَمَّا مَرِيَمُ فَكَانَتْ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذَا الْكَلَامِ مُتَفَكِّرَةً بِهِ فِي قَلْبِهَا. ثُمَّ رَجَعَ الرَّعَاةُ وَهُمْ يَمَجِّدُونَ اللَّهَ وَيُسَبِّحُونَهُ عَلَى كُلِّ مَا سَمِعُوهُ وَرَأَوْهُ كَمَا قِيلَ لَهُمْ» (لوقا ٢: ٨-٢٠).

صاحب ميلاد المسيح العديد من الحوادث السماوية، فقد جرت في السماء أعظم حركة.

لقد سبق بيان اهتمام أهل السماء بحوادث الأرض، وتكرر مجيء كبير الملائكة ليبشر بقرب هذه الولادة العجيبة. لكن هذه هي المرة الوحيدة التي أرسل فيها الله إلى العالم جمهوراً من الملائكة، وسمع على الأرض ترنيم ألحان السماء.

فمن هم الذين نالوا هذا الحظ الفريد، ومهرت أبصارهم رؤية هذا الجمهور، وشنتهم أسماعهم هذه الترنيمة الوحيدة السماوية التي بلغت آذان البشر؟ ليسوا أكابر القوم ولا علماءهم ولا رؤساء الدين المنزل. لم يحظ بذلك هيرودس الملك في قصره المجاور، ولا رئيس الكهنة في الهيكل القريب الباهر، بل قد جاء هذا الشرف وهذا السرور لأشخاص تشابه أحوالهم الخارجية أحوال هذا المولود، لكي تتم هيئة الاتضاع التي تمثّل تنازل الإله لأجل خلاص الإنسان.

لما تأسست الأرض ووضعت حجر زاويتها، ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بني الله، لكن هذا الهتاف والترنيم لم يطرقا آذاناً بشرية. إنما لما تأسس الفداء، ووضعت حجر زاوية الخلاص للبشر الخطاة بتأنس الابن الأزلي، سُمع فوق سهول بيت لحم هتاف ملائكة الله في آذان رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم.

وبينما كان هؤلاء الرعاة ساهرين على أغنامهم وقف بهم ملاك الرب، وأضاء حولهم مجد الرب. فيحقق لهم أكثر من مريم وزكريا أن يخافوا خوفاً عظيماً. لكن الملاك قال لهم كما قال للمذكورين: «لا تخافوا» ثم قال: «ها أنا أبشركم بفرح عظيم». بشر جبرائيل زكريا ثم مريم بأمرٍ مفرح جداً سيكون قريباً. لكن هذه البشارة أعجب، لأن موضوعها أمر. وأخبرهم أن هذا الفرحة يشمل جميع شعب الله الذين يفرحون بهذه الولادة.

كرر الملاك الكلمة الجوهرية التي أعلنها لذكريا عندما سمى هذا الطفل «قرن خلاص» والتي قالها لمريم ثم ليوسف لما سمّاه «مخلصاً» وقال الآن للرعاة: «وُلد لكم اليوم مخلص». وأفهم الرعاة أن هذا المخلص من مدينة داود، فهو إذاً من نسله. وأنه «المسيح» - إذاً هو الموعود به من قديم، وأنه «الرب» - إذاً ليس هو مجرد بشر. ثم أعطاهم علامة دون سؤال منهم، وهي الهيئة التي يرونها عندما يجدون هذا المخلص.

وحالما أكمل الملاك هذا الموضوع الخطير، ظهر بغتةً جمهور من الجند السماوي، لا ليعلنوا إعلاناً جديداً، بل ليتبنتوا الإعلان الأول. ظهروا مسبّحين الله. إن تسبيح الله هو عملهم الخصوصي في السماء، ولما جاءوا إلى الأرض كان هذا أيضاً عملهم، فقالوا: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة».

وهذه العبارة الوجيزة تتفق مع قول بولس الرسول إن «مَلَكَوْتُ اللهُ بِرٌّ وَسَلَامٌ وَقَرَحٌ» (رومية 14: 17). لأن مجد الله برّه أي قداسته، وثمر البر هو السلام والسرور.

ليس للملائكة أن يمكثوا مع البشر مهما اشتهى البشر رفقتهم، فرجعوا إلى السماء. وكان تأثير زيارتهم أن الرعاة أسرعوا إلى البلد، حسب إشارة الملاك ليمتّعوا أعينهم بهذا المنظر الذي جمع بين المجد والتواضع، فصاروا شهوداً للزيارة الملائكية، ثم للإعلان المثبت لحقيقة هذا الطفل غير الظاهرة في شيء من أحواله الخارجية. فلو وُلد هذا الطفل في قصر ملكي، يناسب مقامه الحقيقي، لما سمح أحدٌ لهؤلاء الرعاة في ملابسهم الفقيرة وهيئتهم الحشنة أن يدخلوا لينظروه-ولكن مَنْ يمنعهم عن زيارة الإصطبل؟ جاءوا مسرعين فرأوا ما أخبرهم به الملاك تماماً، وحكوا لمريم ويوسف وغيرهم مَنْ صادفهم خبر ما حدث لهم في ذلك الليل في البرية. فتعجب كل الذين سمعوا مما قيل لهم من الرعاة. أما مريم، الوالدة السعيدة فكان لها هذا الخبر في المنزل الأولى من الأهمية لإثبات صحة بشارة الملاك لها بخصوص مولودها.

ثم رجع الرعاة إلى قطعانهم وهم يمجدون الله ويسبحونه، كما فعل الملائكة في مسامعهم، فكانوا أول من بشر بمجيء راعي النفوس ورأس الكنيسة العظيم.

نتصوّر هؤلاء الرعاة من الأتقياء رغماً عن فقرهم واضطرابهم أن يهملوا كثيراً من طقوس الدين العديدة والثقيلة. لا بل يجوز الظن أيضاً بأن الأغنام التي كانوا يرعونها هي المخصّصة لخدمة الهيكل، المعدّة للتقديم على المذبح المقدس. وهنا نرى علاقة لطيفة بين هذه الأغنام المعدة للمذبح في الهيكل، وهذا الطفل الذي سماه المعمدان «حملٌ الله» وسماه يوحنا الرسول «الحمل المذبح» (يوحنا ١: ٢٩، رؤيا ٥: ٦).

ختان الطفل

«وَلَمَّا تَمَّتْ ثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ لِيُخْتَنُوا الصَّبِيُّ سُمِّيَ يَسُوعَ، كَمَا تَسَمَّى مِنَ الْمَلَائِكَةِ قَبْلَ أَنْ حِيلَ بِهِ فِي الْبَطْنِ» (لوقا ٢: ٢١).

في اليوم الثامن بعد ولادة هذا الطفل، أُجري له فرض الختان الذي جعله الله لإبراهيم علامةً لإفراز شعبه من الأمم الوثنيين حولهم. هذه هي المرة الأولى من مرات عديدة فيها خضع مؤسس العهد الجديد لفرائض العهد القديم. وهذا لكي يربط في شخصه العهدين، كما تتحد في شخصه أيضاً طبيعتا الخالق والمخلوق.

زيارة الطفل للهيكل

«وَلَمَّا تَمَّتْ أَيَّامُ تَطْهِيرِهَا، حَسَبَ شَرِيعَةِ مُوسَى، صَعِدُوا بِهِ إِلَى أُورُشَلِيمَ لِيُقَدِّمُوهُ لِلرَّبِّ، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ: أَنْ كُلَّ ذَكَرٍ فَاتِحٍ رَحِمٍ يُدْعَى قُدُوساً لِلرَّبِّ. وَلَكِنِّي يُقَدِّمُوا ذَبِيحَةً كَمَا قِيلَ فِي نَامُوسِ الرَّبِّ، زَوْجَ يَمَامٍ أَوْ فَرْخِي حَمَامٍ. وَكَانَ رَجُلٌ فِي أُورُشَلِيمَ اسْمُهُ سِمْعَانُ، كَانَ بَاراً تَقِيّاً يَنْتَظِرُ تَغْزِيَةَ إِسْرَائِيلَ، وَالرُّوحُ الْقُدُسُ

كَانَ عَلَيْهِ . وَكَانَ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَرَى مَسِيحَ الرَّبِّ . فَاتَى بِالرُّوحِ إِلَى الْهَيْكَلِ . وَعِنْدَمَا دَخَلَ بِالصَّبِيِّ يَسُوعَ أَبَوَاهُ ، لِيَضْنَعَا لَهُ حَسَبَ عَادَةِ النَّامُوسِ ، أَخَذَهُ عَلَى ذِرَاعَيْهِ وَبَارَكَ اللَّهُ وَقَالَ : «الآن تَطْلُقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلَامٍ ، لِأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ أَبْصَرْتَا خَلَاصَكَ ، الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قُدَّامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ . نُورٌ إِعْلَانٌ لِلْأُمَّمِ ، وَمَجْدٌ لِشَعْبِكَ إِسْرَائِيلَ» .

وَكَانَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ يَتَعَجَّبَانِ مِمَّا قِيلَ فِيهِ . وَبَارَكَهُمَا سَمْعَانُ ، وَقَالَ لِمَرْيَمَ أُمِّهِ : «هَذَا هَذَا قَدْ وُضِعَ لِسُقُوطِ وَقِيَامِ كَثِيرِينَ فِي إِسْرَائِيلَ ، وَلِعَلَّامَةٍ تُقَاوَمُ . وَأَنْتِ أَيْضاً تَجُوزِينَ فِي نَفْسِكَ سَنِيْفٌ ، لِتُعْلَنَ أَفْكَارُ مَنْ قُلُوبِ كَثِيرَةٍ» (لوقا ٢: ٢٢-٣٥) .

أخذ يوسف ومريم المسيح إلى الهيكل في أورشليم لإداء الطقوس الدينية المطلوبة . ولم تنته هذه الزيارة الأولى من رب الهيكل إلى هيكل الرب دون حوادث فوق العادة تناسب وتؤيد ما سبقها من معجزات . فقد التقى سمعان الشيخ بيوسف ومريم ، وهو رجل بار تقي كان الروح القدس عليه ، وينتظر مجيء المسيح الموعود به . وكان قد أُوحى لسمعان الشيخ بالروح القدس أنه يرى قبل موته مسيح الرب . فشعر في ذلك النهار أن هذا الروح يجذبه إلى الهيكل ، ثم يهديه إلى هذا الطفل . فأخذ الصبيَّ وحمله على ذراعيه كأنه يقدمه للرب ، وبارك الرب وقال : «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عينيَّ قد أبصرتا خلاصك» . ثم في خاتمة تسبيحته المختصرة أوضح عمومية هذا الخلاص ، إذ قال : «نور إعلان للأمم» .

ولما أظهر يوسف ومريم التعجب من مضمون هذه التسيبحة ، ومن معرفة سمعان لمقام هذا الطفل ومستقبله باركهما سمعان كما يبارك الكبير الصغير ، ثم كشف لمريم بكلام خصوصي سراً عميقاً ومهمماً جداً متعلقاً بشخص المسيح وعمله ، وهو : كما أن المخلص يُقيم كثيرين ، فهو أيضاً يُسقط كثيرين ، وأنه سيكون موضوع أشد المقاومة

والاضطهاد، ويسبب كشف كثير من مكنونات القلب، وأن مريم أمه ستشارك في آلامه حتى كأن سيفاً يخترق قلبها.

«وَكَاثَتْ نَبِيَّةٌ، حَنَّةٌ بِنْتُ فَنُوئِيلَ مِنْ سِبْطِ أَشِيرَ، وَهِيَ مُتَقَدِّمَةٌ فِي أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ، قَدْ عَاشَتْ مَعَ زَوْجِ سَبْعِ سِنِينَ بَعْدَ بُكُورِيَّتِهَا. وَهِيَ أَرْمَلَةٌ نَحْوَ أَرْبَعِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، لَا تُفَارِقُ أَهْلِيكَلَ، عَابِدَةً بِأَصْوَامٍ وَطَلِبَاتٍ لَيْلًا وَنَهَارًا. فَهِيَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ وَقَفَتْ تُسَبِّحُ الرَّبَّ، وَتَكَلِّمَتْ عَنْهُ مَعَ جَمِيعِ الْمُنتَظِرِينَ فِدَاءً فِي أُورُشَلِيمَ» (لوقا ٢: ٣٦-٣٨).

وبعد هذا الحادث تقدمت نبيه اسمها حنة بنت فنوئيل من سبط أشير كانت طاعنة في السن، وقد ترمّلت قبل هذا بنحو أربع وثمانين سنة، صرفتها في التعبد لله. ولما رأت الطفل مع أبيه وسمعت كلام سمعان الشيخ وقفت تسيح الرب، وتكلمت عنه مع جميع المنتظرين فداء في أورشليم. وهذا الحادث أصبحت حنة بكر المؤمنات بالمسيح بعد ولادته، وباكورة جيش النساء الفاضلات اللواتي خدمته في كل العصور.

وبعد هذه الزيارة للهيكل في أورشليم عاد يوسف ومريم والطفل يسوع إلى مدينة أجدادهم بيت لحم. وبزوال الازدحام الوقتي، تيسر لهذه العائلة المباركة مقرر هناك غير الإصطبل.

زيارة المجوس لیسوع الطفل

«وَمَا وُلِدَ يَسُوعُ فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، فِي أَيَّامِ هِيرُودُسَ الْمَلِكِ، إِذَا مَجُوسٌ مِنْ الْمَشْرِقِ قَدَ جَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ قَائِلِينَ: «أَيْنَ هُوَ الْمَوْلُودُ مَلِكُ الْيَهُودِ؟ فَإِنَّا رَأَيْنَا نَجْمَهُ فِي الْمَشْرِقِ وَأَتَيْنَا لِنَسْجُدَ لَهُ». فَلَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ اضْطَرَبَ وَجَمِيعُ أُورُشَلِيمَ مَعَهُ. فَجَمَعَ كُلَّ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَكُتَّابَةِ الشَّعْبِ، وَسَأَلَهُمْ: «أَيْنَ يُولَدُ الْمَسِيحُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «فِي بَيْتِ لَحْمِ الْيَهُودِيَّةِ، لِأَنَّهُ هَكَذَا مَكْتُوبٌ بِالنَّبِيِّ: وَأَنْتَ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَرْضِ يَهُودَا لَسْتَ الصُّغْرَى بَيْنَ رُؤَسَاءِ يَهُودَا، لِأَنَّ مِنْكَ يَخْرُجُ مُدَبِّرٌ يَرَعَى شَعْبِي إِسْرَائِيلَ».

حِينَئِذٍ دَعَا هِيرُودُسُ الْمَجُوسَ سِرًّا، وَتَحَقَّقَ مِنْهُمْ زَمَانَ النَّجْمِ الَّذِي ظَهَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَهُمْ إِلَى بَيْتِ لَحْمٍ وَقَالَ: «أَذْهَبُوا وَأَفْحَصُوا بِالتَّدْقِيقِ عَنِ الصَّبِيِّ، وَمَتَى وَجَدْتُمُوهُ فَأَخْبِرُونِي، لِكَيْ آتِيَ أَنَا أَيْضًا وَأَسْجُدَ لَهُ». فَلَمَّا سَمِعُوا مِنَ الْمَلِكِ ذَهَبُوا. وَإِذَا النَّجْمُ الَّذِي رَأَوْهُ فِي الْمَشْرِقِ يَتَقَدَّمُهُمْ حَتَّى جَاءَ وَوَقَفَ فَوْقَ، حَيْثُ كَانَ الصَّبِيُّ. فَلَمَّا رَأَوْا النَّجْمَ فَرِحُوا فَرَحًا عَظِيمًا جَدًّا، وَأَتَوْا إِلَى الْبَيْتِ، وَرَأَوْا الصَّبِيَّ مَعَ مَرِيَمَ أُمِّهِ، فَخَرُّوا وَسَجَدُوا لَهُ، ثُمَّ فَتَحُوا كُتُوبَهُمْ وَقَدَّمُوا لَهُ هَدَايَا: ذَهَبًا وَلُبَانًا وَمُرًّا. ثُمَّ إِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ فِي حُلْمٍ أَنْ لَا يَرْجِعُوا إِلَى هِيرُودُسَ، أَنْصَرَفُوا فِي طَرِيقٍ أُخْرَى إِلَى كُورَثِيمَ» (متى ٢: ١-١٢).

في فجر التاريخ البشري لم يطق إبليس أن يرى أبونا الأولين طاهرين سعيدين في جنة عدن، فاحتال عليهما وأسقطهما مع نسلهما جميعاً تحت عبودية الخطية. فهل يمكن أن يسكت لولادة المسيح، آدم الثاني، الأعظم من الأول بما لا يُقاس؟ أوليس هذا عدوه المقتدر الذي قال عنه الرسول: «لِأَجْلِ هَذَا أَظْهَرَ ابْنُ اللَّهِ لِكَيْ يَنْقُضَ أَعْمَالَ إِبْلِيسَ»؟ (١ يوحنا ٣: ٨). حقاً إن سكوت إبليس في هذا الوقت مستحيل، فلا بد من هيجانٍ جديد في دوائر الجحيم.

ولا يحتاج هذا الرئيس إلى رسل من عالم الأرواح لإجراء مشيئته في إهلاك هذا الطفل الفريد، لأن عظماء القوم في البلاد هم في قبضة يده يستخدمهم كما يشاء في إتمام مقاصده المهلكة. ومن هو أقدر على الإعدام من الملوك؟ أو ليس ملك البلاد هيرودس الكبير الشرير الظالم الدموي طائعاً تماماً لمشية ملك الشياطين؟ فما حاجة إبليس إلى غير عبده هذا الملكي الذي يفتخر ويكتفي به ليُجري له مرامه الآن؟ وبما أن أجل هذا الملك الشرير اقترب، فلذلك لا يتباطأ إبليس في استخدامه.

وفي ذات يومٍ في أواخر أشهر الشتاء وقع اضطراب عظيم في أورشليم وفي قصر الملك، بسبب ظهور قومٍ غرباء في أورشليم أتين من المشرق، كانوا على ما يرجح من أهل العلم والرُتب الرفيعة اسمهم المجوس. ولا يقال من أي مشرق أتوا: أمن بلاد فارس أم الهند أم بلاد العرب؟ ولا يُقال كم كان عددهم: هل إثنا عشر حسب بعض التواريخ، أو ثلاثة حسب الرأي الغالب. والذين يصرُّون على أنهم ثلاثة يبنون حكمهم على أن تقدماتهم كانت من ثلاثة أنواع. ويحسبون أنهم مثلوا أقسام البشر الثلاثة: أي بني سام وبني حام وبني يافث، كما مثلوا أقسام العمر الثلاثة أي: الشباب والرجولة والكهولة.

يُرجح أنهم كانوا من المهتمين، كسائر علماء عصرهم، بدرس علم الفلك ومراقبة الأجرام السماوية. وقد يكونون من الذين سمعوا من اليهود المتغربين في بلادهم عن المسيح العظيم المنتظر، وأنهم من أمثلة الوثنيين الذين يقول فيهم كتبة اليهود والرومان إنهم كانوا يتوقَّعون ظهور شخص عظيم في بلاد اليهود.

أما أهل أورشليم فقد اعتادوا مجيء الزائرين من كل بلدان العالم حيثما كان الشعب اليهودي مشتتاً، لأن شهرة مدينتهم جعلتها مطمح أبصار الكثيرين من غير اليهود، الذين يريدون التفرجح والاتجار. لكن قدوم هؤلاء المجوس أوقع اضطراباً عاماً

بسبب السؤال الذي سألوه وغرضهم من هذه الزيارة. كان سؤالهم: «أين هو المولود ملك اليهود؟ لأننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له».

أثار هذا السؤال خوفاً عظيماً في قلوب الذين سمعوه، بسبب ما توقعوا أن يفعله الملك الشرير هيرودس متى سمع بملكٍ جديدٍ غيره. لا بد أن فنون جنونه تتجددٌ بذلك. ولا يعلم أحد على من تقع ضرباته البربرية المهلكة. كان جواسيسه المأجورون يبلغونه حالاً بكل ما يمسه أو هممه، فلما بلغه خبر مجيء المجوس وسؤالهم، هاج خوفاً على عرشه وعلى حياته، فجمع حالاً كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب ليعرف منهم إن كان في كتب الأنبياء إشارة إلى مكان مولد المسيح. وإطاعة لأمره سردوا له قول النبي ميخا: «أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمِ أَفْرَاتَةَ، وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفِ يَهُوذَا، فَمَنْكِ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مَتَسَلِّطاً عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَمَحَارِجُهُ مِنْذُ الْقَدِيمِ مِنْذُ أَيَّامِ الْأَزْلِ» (ميخا ٥:٢).

ولا بد أن هيرودس دعا المجوس إلى قصره وأكرمهم - رغم شدة هيجان حنقه الداخلي عليهم - ليعرف منهم موعد ظهور النجم. ونعتقد أنه كان يهينهم ويعذبهم ويهلكهم لولا مكره الذي أوعز إليه أن يستخدمهم لإهلاك المولود الجديد الذي يهدد عرشه، فأخفى عنهم غيظه وأرسلهم إلى بيت لحم، ثم بمزيد الخبث والمكر أوصاهم: «أن يفحصوا بالتدقيق عن الصبي» وبمنتهى الرياء قال: «ومتى وجدتموه فأخبروني لكي آتي وأسجد له» فقدّر لنفسه يوماً قريباً فيه يأخذ من المجوس الخبر الذي طلبه منهم، فيذهب بنفسه متظاهراً بقصد السجود، ليقتل الصبي، وربما المجوس أيضاً الذين أزعجوه.

كنا نود أن نعرف أفكار المجوس لما وصلوا إلى العاصمة اليهودية، ووجدوا أن لا علم لأحد بميلاد الملك الجديد، من سكان القصر الملكي إلى أحقر رجل في الشارع. لماذا لم يأسفوا على سياحتهم ومشاقها ويعودوا على أعقابهم إلى بلادهم خجولين؟ لماذا لم

يفتكروا أن نجمهم أضلَّهُم فيندمون على ما فعلوا؟ ربما استأنسوا بقول هيرودس إنه يريد هو أيضاً أن يسجد لهذا المولود، فتجددت آمالهم بعد أن علموا أن الملك هيرودس نفسه يريد أن يأتي ويسجد له. فذهبوا مستعدين أن يفعلوا ما أوصاهم، وشكروه على التسهيلات التي قدمها لهم.

وفي طريقهم إلى بيت لحم عاد النجم الذي رآه في المشرق إلى الظهور، وتقدّمهم «حتى جاء ووقف حيث كان الصبي». ففرحوا فرحاً عظيماً جداً» ولا بد أنهم استدّلوا من النجم، لما رآه في بلادهم، أن وُجهتهم يجب أن تكون أورشليم، وأن النجم لم يرافقهم إليها. رآه في المشرق وودّعهم هناك، ولذلك سرّهم جداً ظهوره الآن بعد انجابه.

وبما أن ليس في أحوال العائلة المقدسة الخارجية، ولا في منظر الصبي، ما يؤيد أصله العجيب ومقامه السماوي، نرجح أن «أبويه» لم يكونا قد أظهرها هذه الأسرار لأهل بيت لحم، وأنه لا يمكن أن يهتدي المجوس إلى مكان المسيح بدون هداية النجم. فإلى أي طفل من جميع أطفال بيت لحم ينبغي أن يسجدوا؟ لذلك ظهر لهم النجم من جديد ليثبت إيمانهم، وليدبّهم على البيت الذي يجب أن يزوروه. فلم يكن النجم مجرد أعجوبة، بل كان وسيلة ضرورية للوصول إلى نتيجة مهمة.

ونلاحظ أنهم لما دخلوا البيت الذي هداهم النجم إليه لم يسجدوا إلا للطفل، وقدموا له وحده الهدايا، فقدّموا مُراً ناسب مقام هذا الطفل النبوي، ولباناً وافق مقامه الكهنوتي، وذهباً لائم مقامه الملكي.

وقد بحث العلماء كثيراً في موضوع هذا النجم العجيب، ودقّق الفلكيون في حساب الظهورات الجوية النادرة، لبروا أنها يجوز اتخاذها تفسيراً لهذا الظهور. وعُلم أن في نحو ذلك التاريخ حدث اقتران في النجوم السيارة، لا يحدث إلا مرة بين مئات السنين. وظن بعضهم أن هذا الاقتران كان دليل المجوس. وعُلم أيضاً أن نجماً خارقاً

في لمعانه ظهر في نحو ذلك الزمان، وبقي وقتاً وجيزاً ثم اختفى، فظنّه آخرون أنه نجم المجوس، وزعم غيرهم أنه كان من ذوات الأذناب التي لم يرد خبر ظهور بعضها في التاريخ إلا مرة، خلافاً للبعض الآخر التي لضيق حلقة دورانها، تعود إلى الظهور في فلكننا في مواقيت معلومة. ولكن لا يعرف أحد بالتأكيد شيئاً كافياً عن هذا النجم.

كم فرح المجوس برؤية هذا الطفل الذي رأوا نجمه أولاً في مشرقهم البعيد. لقد حصلوا على نور جديد يفوق كثيراً الأجرام السماوية التي كانوا يراقبونها. وهذه نتيجة اهتمامهم بالدين، لذلك أوحى إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، فانصرفوا في طريق أخرى إلى كورثم. ولا نعرف كيف ودّع المجوس الأغنياء العائلة المقدسة الفقيرة.

«وَبَعْدَمَا أَنْصَرَفُوا، إِذَا مَلَكَ الرَّبُّ قَدْ ظَهَرَ لِيُوسُفَ فِي حُلْمٍ فَاتَّيلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَأَهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ. لِأَنَّ هِيرُودُسَ مُزْمَعٌ أَنْ يَطْلُبَ الصَّبِيَّ لِيُهْلِكَهُ». فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ لَيْلاً وَأَنْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ، وَكَانَ هُنَاكَ إِلَى وَفَاةِ هِيرُودُسَ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ مِنَ الرَّبِّ بِالنَّبِيِّ: «مِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي» (متى ٢: ١٣-١٥).

حال انصراف المجوس ظهر ملاك الرب ليوسف في حلمٍ ثانٍ، كما ظهر قبل هذا في الناصرة، وأمره بالذهاب إلى مصر، وأعلن له سبب ذلك، فلم يتباطأ يوسف في طاعة الأمر الإلهي.

لا بد أن مجيء المجوس وما فعلوه أثر في جميع سكان بيت لحم، وزاد احترامهم لعائلةٍ ربما كانوا قبلاً يحتقرونها، ولا سيما للطفل الذي اعتبره المجوس ملك إسرائيل الجديد، فسجدوا له وأتحفوه بهدايا ذات قيمة مهمة.

ولولا هدايا المجوس الثمينة ما كان يوسف يقدر أن يقوم بنفقات هذا السفر البعيد والتغرب في مصر. فجاءت هذه الهدايا شاهداً جميلاً لتدبير العناية الإلهية العجيبة متى مسّت الحاجة لإتمام مشيئته المقدسة.

قتل أطفال بيت لحم

«حِينَئِذٍ لَمَّا رَأَى هِيرُودُسُ أَنَّ الْمَجُوسَ سَخَرُوا بِهِ غَضَبٍ جِدًّا، فَأَرْسَلَ وَقَتَلَ جَمِيعَ الصَّبِيَّانِ الَّذِينَ فِي بَيْتِ لَحْمٍ وَفِي كُلِّ نَحْوِهَا، مِنْ أَيْنَ سَنَّتَيْنِ فَمَا دُونَ، بِحَسَبِ الزَّمَانِ الَّذِي تَحَقَّقَهُ مِنَ الْمَجُوسِ. حِينَئِذٍ تَمَّ مَا قِيلَ بِإِرْمِيَا النَّبِيِّ: «صَوْتُ سُمْعٍ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ وَبُكَاءٌ وَعَوِيلٌ كَثِيرٌ. رَاحِلٌ تَبْكِي عَلَى أَوْلَادِهَا وَلَا تُرِيدُ أَنْ تَتَعَزَّى، لِأَنَّهُمْ لَيُسُوا بِمَوْجُودِينَ» (متى ١٦: ٢-١٨).

ماذا جرى في قصر هيرودس بعد أن ترك المجوس بيت لحم، وماذا فعل يوسف ومريم؟ لنعدُّ بالفكر إلى القصر الملكي في أورشليم، فنرى هيرودس منتظراً بفروغ صبر عودة المجوس، ليعرف ماذا يعمل لكي يهلك المولود ملك اليهود. ولما انتهت المدة المتفق عليها بينه وبينهم لم يعودوا إليه، يرجح أنه أرسل إلى بيت لحم يسأل عنهم. ولما أخبره رسوله أنهم انصرفوا على غير طريق أورشليم، أدرك أن المجوس خدعوه، فاغتاز جداً لأن هذا أضع فرصته لمعرفة أي صبي في بيت لحم يجب أن يقتل.

ولا شك أن هيرودس سعى ليعرف من أهل بيت لحم البيت الذي زاره المجوس. ولما أخبر أنهم كانوا غرباء من الجليل، وأنهم سافروا ليلاً إلى جهة مجهولة، لم يصدق ذلك، بل نسب إليهم الخداع، حسب عادته المشهورة في التطرف في إساءة الظن، واعتبر أن هذه الإجابة محافظة على أحد أولادهم، فحامي غضبه أكثر، وقصد أولاً أن يتأكد من قتل الطفل يسوع. وثانياً أن ينتقم من أهل بيت لحم بعد أن ظن أنهم قاموه بالخداع، وقبلوا سخرية المجوس به، وهو الملك العظيم. فأرسل رجاله ليقتلوا

جميع الصبيان الذين في بيت لحم والذين في كل تخومها (لثلا يكون قد تحذّر أحد فهرب إلى خارج) من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس .

يرى البشير متى في هذا الحادث المريع وهذه الفظاعة الميرودية، إتماماً ثانياً لقول إرميا: «صَوْتُ سُمِعَ فِي الرَّامَةِ، نَوْحٌ بَكَاءٍ مُرٌّ. رَاحِيلُ تَبْكِي عَلَى أَوْلَادِهَا وَتَأْتِي أَنْ تَتَعَزَّى عَنْ أَوْلَادِهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَوْجُودِينَ» (إرميا ٣١: ١٥) وقد حسبهم البعض باكورة الشهداء المسيحيين لأنهم ذُبحوا في سبيل المسيح .

عودة إلى الناصرة

«فَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُسُ، إِذَا مَلَكَ الرَّبُّ قَدْ ظَهَرَ فِي حُلْمٍ لِيُوسُفَ فِي مِصْرَ قَائِلاً: «قُمْ وَخَذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَادْهَبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِيِّ». فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَجَاءَ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيَلَاوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عَوَظاً عَنْ هِيرُودُسَ أَبِيهِ، خَافَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. وَإِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي حُلْمٍ، انْتَصَرَ إِلَى نَوَاحِي الْجَلِيلِ. وَاتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةٌ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالْأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا» (متى ٢: ١٩-٢٣) .

لم يطل الوقت إلا ونال هيرودس الظالم الدموي الشرير عقابه الذي يستحقه، لأنه مات موتاً مخيفاً في قصره في مدينة أريحا، معدباً عذابات لا توصف من خارج ومن داخل . فمن يقدر أن يتصور لساعات ضمير الشرير في ساعات الموت، وخصوصاً متى طالت هذه الساعات، وكانت علتها لا ترحمه؟ ظن هيرودس لما قتل أطفال بيت لحم أنه يعيش وأن الصبي الذي خشي أن يهدد عرشه قد قُتل . لكن بعد أيام قليلة كان هيرودس في قبره، بينما كان الصبي يسوع حياً محروساً، قد عظم شأنه حسب ما نراه في هذا اليوم .

ولم يطل تغرب العائلة المقدسة، فقد جاء ليوسف في مصر ملاكٌ قال له في حلم: «قم وخذ الصبي وأمه» لكنه لم يقل: «اهرب» بل «اذهب». وأمره بالرجوع إلى أرض إسرائيل باطمئنان، لأن الذي أراد أن يقتل الصبي قد مات، فسمع يوسف وأطاع.

ونعتقد أن يوسف ومريم أرادا أن يستوطنا في بيت لحم، مدينة أجدادهم، مدينة داود الجميلة المكرمة، الواقعة على حدود المدينة المقدسة أورشليم، ويقرب هيكل الله العظيم، وبجانب المدارس العالية التي يلزم أن يتخرج فيها كل من قصد التقدم في المراتب الدينية، فقد كان تقدم المسيح مطمح أبصارهما، وهذه هي المدينة التي وضع الله اسمه فيها منذ أيام داود الملك والنبي العظيم، أفلا يوافق أن يتربى فيها أو في جوارها وارث داود الأعظم؟ ولكن بما أن ملك اليهود الجديد أرخيلوس بن هيرودس الذي قام في أول ملكه بأعمال كثيرة حسنة، ليؤيد سلطته ويحفظ عرشه، تغير سريعا، وأظهر من القساوة ما مائل تصرفات أبيه، خاف يوسف أن يستوطن تحت ظله.

ويظهر أن يوسف كان في حيرته يلتجئ إلى الصلاة طلباً لإرشاد الله، فكان الله يجيبه وينيره بواسطة أحلامه. وقد شعر الآن بعظمة المسؤولية التي عليه للمحافظة على يسوع وحسن تربيته. وفي هذه الحيرة أتاه الإرشاد الإلهي في حلم، فرجعوا إلى وطنهم الأول في الناصرة وسكنوا هناك. ويقول متى البشير إن الإقامة في الناصرة حقت قول أحد الأنبياء إن المسيح سيُدعى ناصرياً (متى ٢: ٢٣).

طفولة فريدة

تتضح طفولية يسوع الفريدة عن كل طفولية سواها في التاريخ لمن يتتبع قراءتها بإمعان، فمنها الكلام العجيب الذي جاء أولاً في النبوات القديمة التي تحققت بصورة

مدهشة في تفاصيل هذه الطفولية، ثم جاء في النبوات الجديدة من ملائكة وبشر قبل ولادته مباشرة، ثم في الأناشيد الممتازة لأليصابات وزكريا ومريم.

ومنها الحوادث العجيبة التي ابتدأت بظهور الملاك لزكريا وعقابه بالخرس لعدم إيمانه، ثم تلا ذلك حبل أليصابات العجيب، وشفاء زكريا من خرسه، وظهور الملاك لمريم وحبلها العجيب، والتعليمات الضرورية الصادقة التي وردت ليوسف في الأحلام، والأمر الإمبراطوري بالإحصاء وحفظ القيود النَّسَبِيَّة اليهودية، وظهور الملائكة للرعاة، وحوادث التقديم في الهيكل، وزيارة مجوس المشرق، ومنها التنوع العجيب في الاحتفاء بولادة هذا الطفل: أولاً اشتراك الملائكة ممثلي أهل السماء، ثم الكاهن ممثل رجال الدين، ثم الرعاة ممثلي فقراء العالم. ثم مريم وأليصابات ممثلي الشابات والعجائز ثم المجوس ممثلي الأغنياء والعلماء والأشراف، وممثلي الأمم الوثنية، ثم سمعان الشيخ ممثل الإسرائيليين الأتقياء، وحنة ممثلة الأنبياء، والنجم ممثل الطبيعة غير العاقلة.

يُضاف إلى هذا مناسبة الوقت الذي جاء فيه هذا المولود، ليس فقط أنه الوقت الذي اتفق مع النبوات الصريحة المختصة بالمسيح الموعود به، بل أن المناسبة ظهرت من أوجه أخرى عديدة، أوضحها الرسول بولس بعد ذلك في قوله: «لَمَّا جَاءَ مَلَأُ الزَّمَانِ، أَرْسَلَ اللَّهُ ابْنَهُ مَوْلُوداً مِنْ أَمْرَأَةٍ، مَوْلُوداً تَحْتَ النَّامُوسِ» (غلاطية ٤: ٤).

جاء المسيح رئيس السلام في وقت سلام عمّ الأرض نادر الوقوع. وجاء في وقت توطّد فيه الأمن العام، وتوقّرت المواصلات في الداخل والخارج تسهيلاً لأسفار رسله والمبشرين بإنجيله، وذلك بواسطة امتدادٍ لا مثيل له في التاريخ لسطوة سياسية موحّدة منظمة شاملة، هي سطوة الإمبراطورية الرومانية في عِزّها. ومن محاسن هذا الحكم إطلاق الحرية التامة الدينية.

وكانت اللغة اليونانية، أفضل اللغات القديمة، منتشرةً مع فلسفتها البليغة في البلدان المختلفة، تسهياً لتوزيع إنجيل المسيح والتبشير به، ولا سيما أن اليهود كان لهم في الشتات ترجمة توراتهم العبرانية إلى اللغة اليونانية.

جاء المسيح في وقت تفاقم فيه الشر في العالم لتتضح شدة احتياجه إلى مخلص مقتدر يقدم فداءً كافياً، ويظهر سلطةً وافيةً ليكون مخلص البشر أجمع.

جاء المسيح في وقت تمّت فيه الوسائل الأخرى التي استخدمها الإله سبحانه لردّ البشر عن شرورهم. وكانت هذه الشرور تزداد، فامتألت صدور الأتقياء القليلي العدد يأساً، جعلهم يتوقعون بفروغ صبر المسيح المخلص.

جاء المسيح في وقت تشتّت فيه الشعب اليهودي في كل المعمور، وهو شعب متمسك بالتوحيد الإلهي، يكره العبادة الصنمية. وباعتبار التوراة الكتاب المنزل كان رسل المسيح يبدأون باليهود في التبشير بمجيء مسيحيهم، ويستعينون بمن يؤمن منهم لنشر البشارة بين الأكثرية الوثنية. وفي ذات الوقت كان الحكم الروماني العادل الصارم حاجزاً منيعاً أوقف رؤساء اليهود الذين أرادوا أن يخنقوا المسيحية في مهدها وأن يطفئوا ذكر المسيح.

فبناءً على الأمور المار ذكرها وأمثالها، هل من عجب أن افتتح البشير مرقس تاريخ حياة هذا المولود بقوله: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله؟».

صُبُوَّةُ الْمَسِيحِ

بعد أن ذكر الإنجيل حوادث ميلاد المسيح ذكر حادثة ذهاب المسيح إلى هيكل أورشليم، وله من العمر اثنتي عشرة سنة، ثم صمت الإنجيل تماماً عن ذكر أي شيء من حياة المسيح حتى بلغ الثلاثين من عمره وبدأ خدمته الجهارية بين الناس، يشفي المرضى ويقىم الموتى ويعلم الناس .

ويتوق كل إنسان إلى أن يرى عملاً ولو واحداً، وأن يسمع قولاً ولو كلمة، عن مرحلة طفولة المسيح وصبوته . لكن ليس للعالم شيء من ذلك قبل بلوغ المسيح سن الإثنتي عشرة، لأن الوحي أسدل ستاراً حجب عن العالم ما افكره المسيح وقاله وفعله في تلك المدة كلها .

ويجوز أن نخمن بعض أمور أهمل ذكرها، منها التحاقه في سن السادسة بالمدرسة كسائر أولاد اليهود، مراعاة لقانون الدين، الذي جعل تعليم الأولاد إلزامياً، فأصبح يسوع شريكاً لجمهور الأولاد في المدارس، ونموذجاً لهم في الدروس والسلوك، يعرف تجاربهم ويشعر معهم فيها، لأنه تجرّب مثلهم فيرثي لهم . ومنها أيضاً امتيازه بين زملائه علمياً وأخلاقياً .

في عمر الثانية عشرة

ولما بلغ يسوع الثانية عشرة من عمره ذهب مع مريم ويوسف إلى هيكل أورشليم، ثم مرَّ على هذا الحادث نحو ثماني عشرة سنة، سكت الوحي تماماً عن أخبارها . ولم نقل «سكت البشرون» لأن سكوتهم لم يكن طبيعياً . ولا يفسره إلا أنهم كانوا منقادين

بروح الوحي إلى هذا السكوت . وأما الكتبة الغير الموحى إليهم، الذين كتبوا بعدهم، فأتبعوا النسق الطبيعي، ولفقوا أخباراً عديدة تتعلق حسب قولهم بتلك السنين .

ولم يرضَ مسيحيو الأجيال المظلمة عن هذا السكوت، فلّفقوا أخباراً مفصّلة مطوّلة، وكتبوا أنجيل ورسائل تحتوي قصصاً خرافية عن طفولية يسوع، تورد أقوالاً وأفعالاً تلائم تصوّراتهم السخيفة، المضادة لنصوص الإنجيل الحقيقي، فقد ظنوا أن المعجزات التي اخترعوها تزيد من أمجاد المسيح، لكنها في الواقع تشهد بسخافة تلك القصص .

ولكننا نتساءل: لماذا سكت الوحي عن أخبار هذه السنين، مع أن الوسائل لمعرفة حوادثها كانت متوفرة؟ وجواباً لذلك نقول إن حوادث طفولية يسوع أظهرت ملامح طبيعته الإلهية الضرورية لأجل صلاحيته كمخلّص، فصار من الضروري أن تنحجب هذه الملامح مدة كافية لأجل إيضاح إنسانيته الحقيقية . لذلك أنحجَب لاهوته عن عشرائه أثناء سنوات استعداده الثلاثين، إلى أن برز للخدمة، فتجددت براهين لاهوته الحقيقي، في ما بقي من حياته بين الناس .

وهذا السكوت من أهم براهين خطأ الذين يزعمون أن عمل يسوع الأعظم والأهم كان تقديمه قدوة للناس يتمثلون بها، فلو أن هذا كان صحيحاً لكان من الواجب إعلان ما قاله المسيح وفعله في السنين التي قضاها في العيشة العادية كأحد العامة، يمارس مهنته كنجار في الناصرة .

ولم يقصد البشرون تدوين حوادث حياة المسيح تاريخياً، بل قصدوا أن يبينوا أنه المصلح والمخلّص . لذلك اكتفوا بالتاريخ الذي ابتدأ عند مباشرته أعماله علانية ورسمياً، بعد بلوغه سن الثلاثين، مع أن الأخبار التي أهملوها كانت تفيدهم وتلدُّ العالم كثيراً لو أنها سُجّلت .

ومع أن الناصرة مدينة حقيرة بالنسبة إلى كثير من مدن البلاد، إلا أنها كانت تناسب من أوجه عديدة تربية الصبي ثم الشاب يسوع فيها، فقد كانت زُمر الكهنة تجتمع فيها من مساكنهم المتفرقة، عندما يأتي دورهم ليرحموا في هيكل أورشليم، ومنها يذهبون معاً لأورشليم. والذين يتعدّد عليهم الذهاب إلى أورشليم كانوا يقضون أسبوع خدمتهم في أداء الفروض الدينية في الناصرة، على إحدى الطرق الرئيسية الموصلة بين المناطق الداخلية وشاطئ البحر الأبيض المتوسط، فكانت تمرّ فيها القوافل المسافرة إلى البلاد الفينيقية وإلى مصر، فيرى يسوع من الحركات العمرانية ما يفقهه في أحوال البشر الزمنية. وقد أدّى سكنه في قرية حقيرة في أطراف البلاد إلى نموّه في التواضع وفي البساطة الدينية، لبُعدّه عن مركز اليهود الديني حيث كان الفساد مستفحلاً، لأن الادعاءات الرياسية، والخطرسة الرئائية، والسفسطة التقليدية، والتفنينات الطقسية، كانت قد استولت على قادة الأمة في عاصمة دينهم، فخنقت التقوى الحقيقية، وضاع من بينهم روح الدين بسبب استعبادهم للحرف، وقد أوضح يسوع أفكاره في هذا كله يوم زار أورشليم، ودان أولئك الرؤساء على ذلك بكلام قارص جداً.

ويظهر أن أصل يسوع السماوي كاد يبرح من أفكار مريم ويوسف في سني حداثة. ولا عجب، لأن حياته كانت تسير على أسلوب اعتيادي، ما خلا تفوّقه في الصلاح، فاعتاد أهله النظر إليه كإنسان فقط. وكان في هذا الإغفال خير، إذ أدّى إلى أنه اختبر أحوال البشر المتنوعة، عندما اختلط بقومه في أطوار حياته التي تدرّج فيها. ونتيجة لذلك تجرب في كل شيء مثلنا. فلو كان أبواه يفتنانه في كثير من الأوقات إلى حقيقة طبيعته لأصبحا في ارتباك دائم في معاملته، ولكانا يحسبان أنه يجب عليهما الخضوع له في الرأي، وأن يقدّما له الطاعة، وليس بالعكس. وكان إذ ذاك قد تربى تربية أبعدهت عن سائر البشر، وأفقدته الاشتراك التام في الشعور مع الأولاد والشبان والرجال.

ولا نشك أن يسوع كان في حادثته في الناصرة متقدماً حرارة وغيره وإشفاقاً لرؤيته مصائب الناس وآلامهم، ولذلك ندهش أكثر لصبره العجيب، وامتلاكه عواطفه تلك السنين كلها التي كان فيها محتجباً في الناصرة، ومؤجلاً عمله الخطير الذي نزل من السماء لأجله، والذي شغل كل أفكاره .

كان عليه أن يمارس يوماً حرفة النجارة ليكسب رزقه، حتى أطلق اليهود عليه لقب «النجار ابن مريم» . وتعلم القناعة بحالته الفقيرة، والخضوع للأكبر منه سناً. ومما يؤيد استنتاجنا أن حياته كانت اعتيادية تماماً، أن إخوته لم يؤمنوا به، كما أن صيته لم يمتد في البلاد المجاورة، لأن نشأته في قانا الجليل على بُعد ساعات قليلة، لم يكن قد سمع به كل تلك السنين، ولا أهل كفر ناحوم وبيت صيدا الأبعد قليلاً بالنسبة إلى قانا. وقد تلخص تاريخ حادثته في قول البشير لوقا: «وَكَانَ الصَّبِيُّ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، مُمْتَلِئاً حِكْمَةً، وَكَانَتْ نِعْمَةٌ اللَّهِ عَلَيْهِ» . وقوله: «وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ (في عقله) وَالْقَامَةِ (في جسمه) وَالنَّعْمَةِ (في روحه)، عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ» (لوقا ٤٠: ٢ و ٥٢) . وهذا الكلام يدل على أن المسيح تدرج في ذلك تدرجاً طبيعياً. وبذلك كان حائزاً - ليس فقط على الرضى الإلهي - بل على الإستحسان البشري أيضاً. . وكانسان نتصوره في كل تلك المدة يحبه جميع الناس، مستعداً لخدمتهم في كل أمر حسن، يبتعد عن كل ما يكدرهم، ويصبر على هفواتهم، ويعاملهم باللطف في سيئاتهم. لم تأت ساعته بعد، التي تطلب منه مقاومة الشر جهاراً، فتثير عليه حنق الأشرار، ولم ينل بعد الشهرة والأهمية التي تهبج عليه حسد الكبار.

زيارة هيكل اورشليم

«وَكَانَ أَبُوَاهُ يَذْهَبَانِ كُلَّ سَنَةٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ . وَمَا كَانَتْ لَهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً صَعَدُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ كَعَادَةِ الْعِيدِ . وَبَعْدَمَا اكْمَلُوا الْأَيَّامَ بَقِيَ عِنْدَ رُجُوعِهِمَا اللَّصْبِيُّ يَسُوعُ فِي أُورُشَلِيمَ ، وَيُوسُفُ وَأُمُّهُ لَمْ يَعْلَمَا . وَإِذْ ظَنَّاهُ بَيْنَ الرُّفُقَةِ ، ذَهَبَا مَسِيرَةَ يَوْمٍ ، وَكَانَا يَطْلُبَانِهِ بَيْنَ الْأَقْرِبَاءِ وَالْمَعَارِفِ . وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ رَجَعَا إِلَى أُورُشَلِيمَ يَطْلُبَانِهِ . وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَجَدَاهُ فِي الْهَيْكَلِ ، جَالِسًا فِي وَسْطِ الْمُعَلِّمِينَ ، يَسْمَعُهُمْ وَيَسْأَلُهُمْ . وَكُلُّ الَّذِينَ سَمِعُوهُ مَبْتُؤًا مِنْ فَهْمِهِ وَأَجْوَابَتِهِ . فَلَمَّا أَبْصَرَاهُ اندهشوا . وَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ : « يَا بُنَيَّ ، لِمَاذَا فَعَلْتَ بِنَا هَكَذَا؟ هُوَذَا أَبُوكَ وَأَنَا كُنَّا نَطْلُبُكَ مُعَذِّبِينَ! » فَقَالَ لَهُمَا : « لِمَاذَا كُنْتُمَا تَطْلُبَانِي؟ أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ أَكُونَ فِي مَا لِأَبِي؟ » . فَلَمْ يَفْهَمَا الْكَلَامَ الَّذِي قَالَهُ لُهُمَا .

ثُمَّ نَزَلَ مَعَهُمَا وَجَاءَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَكَانَ خَاضِعًا لَهُمَا . وَكَانَتْ أُمُّهُ تَحْفَظُ جَمِيعَ هَذِهِ الْأُمُورِ فِي قَلْبِهَا . وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنِّعْمَةِ ، عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ » (لوقا ٢: ٤١-٥٢) .

في عمر الثانية عشرة سافر يسوع من الناصرة إلى هيكل اورشليم . وكان يوسف - رأس هذه الأسرة الناصرية الصغيرة - مكلفاً رسمياً أن يصعد إلى اورشليم سنوياً في الأعياد المهمة، وعلى الأخص في عيد الفصح، أكبر الأعياد، ولم تكن مريم مكلفة بذلك، شأنها شأن سائر النساء، كما كان الصبيان غير مكلفين قبل أن يدخلوا تحت «نير الناموس» في سن الإثنتي عشرة .

وفي تلك السنة وقع عيد الفصح في ٨ نيسان . إلى هذا العيد إذاً صعد به «أبواه» أول مرة . نحب أن نتصور اهتمام الثلاثة بالاستعداد لهذه الزيارة الأولى - زيارة هذا

الولد العجيب - إلى المقام الديني الموقر. ثم نتصور رحلتهم برفقة القافلة المؤلفة من الجيران، مع كثيرين من بلاد أبعد وراء الناصرة.

وكان على هذه القافلة أن تختار إما الطريق الأقصر الذي يمرُّ في بلاد السامريين المكروهين، وذلك يعرضهم للإهانة والمضايقة، التي كان يتعرض لها اليهود الصاعدون بزيارات دينية إلى مدينة أورشليم من أهل السامرة. أو أن تفعل فعل اليهود المتدينين، وتختار المرور على الطريق الأبعد الواقع شرقي الأردن، فتضطر أن تعبر هذا النهر مرتين. وفي الحالتين يشرف هذا الجمهور على أورشليم في اليوم الرابع أو الخامس.

ولا بد أن يسوع فرح وهو يرى الهيكل الفخم الجميل، والعايدين القادمين من مختلف بلاد العالم، ويسمع فرق الترتيل تعزف بالآلات الموسيقية وترنم بألحان مطربة مردّدة مزامير جدّه داود. هنا يشاهد خدمة صفوف الكهنة، ولا سيما رئيسهم الأعظم، وهم مخصصون لخدمة الله، وخدمة الشعب في الأمور الروحية، وعليهم دون غيرهم تتوقف المصالح الدينية في البلاد. وكل فرد يطلب المصالحة مع الله وغفراناً لخطاياها كان مضطراً أن يقدم بواسطة هؤلاء الكهنة فقط الذبائح المفروضة عليه لينال هذه البركات.

كان يوسف ومريم ويسوع يقضون أيامهم في المدينة مع المعيّدين، ويجرّسون بكل تدقيق على مواقيت الصلاة القانونية في الهيكل، مع سائر الفرائض المذهبيّة العديدة المتعلقة بهذا العيد، ولا سيما التقدّمات والذبائح. ولا بد أن رغبة هذا الصبي الذكي التقى اتجهت بالأكثر إلى السبب الخصوصي من هذه الزيارة، وهو فريضة الفصح المقدسة. ولا بد أنه كان يعلم أنه هو حمل الفصح الحقيقي، وأن كل تفاصيل هذا الاحتفال بالفصح ترمز إليه، وأن فيه تنتهي هذه السنّة القديمة التي مارسها شعب الله بكل تمسك مدة ألف وخمسمائة سنة. فكيف لا تكون عواطفه الدينية عامرة ابتهاجاً واشتياقاً إلى الاشتراك لأول مرة في فروض هذا العيد العظيم؟

لكن ما كان أبعد كل أفكار الجمهور الذي اختلط به هذا الصبي من التصوّر بأن هذا هو مسيحهم الموعود به والمنتظر. وكان من الواجب ألاّ يعرفوا ذلك الآن، لأنهم لو عرفوا لما سمحوا له أن يعود ويكمل مدته المعينة لاستعداده الكافي لعمله المقبل.

يظهر أنه كان ينفرد عن «أبويه» في النهار، وهما لا يهتمان لذلك، لعلمهما بصفاته وثقتهما التامة فيه، فلم يلاحظا كم كان يقضي أوقاتاً في عُرف التدريس الديني الملاصقة للهيكل، حيث كان أعظم علمائهم يعظون ويدرسون. وهو الآن يهتم فوق كل شيء بالاستفادة، فلا بد أنه رأى لأول وهلة الفرق الكلي بين أفكاره وأفكارهم، وكشف سطحية ديانة هؤلاء المعلمين، فشعر بالحاجة إلى تعاليم روحية جديدة، على نسق جديد، وإلى بيان العلاقة الجوهرية بين التقوى وصلاح السيرة.

وأخيراً انتهت أيام العيد، وتمّ الاستعداد للرجوع للناصره. وسافروا صباحاً جمهوراً ليس بقليل، فلم يلاحظ أحدهم - حتى ولا «أبواه» - أن الصبي لم ينضمّ إليهم، ولا علم أحدهم أنه كان قد ذهب إلى الهيكل «ليسمع المعلمين ويسألهم». ولكن لما لم يجده مساءً، بعد التفتيش عنه بين جميع الأقرباء والمعارف، رجع «أبواه» إلى المدينة منزعجين. وهناك لم يجده في كل الأماكن التي تصوّروا أنه يتردد إليها، حتى بعد مواصلة التفتيش الجدّي عنه يومين. إلى أن وجده في اليوم الثالث في دائرة الهيكل جالساً بين علماء أمتهم وقد حصل على احترامهم وتعجبهم. كانت أفكاره متّقدة بالمواضيع الدينية الجوهرية، يسأل العلماء بشغف، ويحيب على أسئلتهم بحكمة فائقة. فلما دخل «أبواه» إلى ذلك المكان الموقّر لم تمتلك مريم نفسها، بل أسرعت إلى توبيخه، قائلة: «يا بُنيّ، لماذا فعلت بنا هكذا؟ هوذا أبوك وأنا كنّا نطلبك معذنين».

لا نلوم أمّاً احتدت على ابنها في أحوال كهذه، إلا إذا كان ابنها يسوع، لأن معرفتها سموه العقلي والأدبي، كان يجب أن توقّفها عن توبيخه. ومن جوابه عرفنا أنها ملومة، لأن جوابه لم يكن اعتذاراً عمّاً فعل أو حُجّة لترضى بأن يبقى في أورشليم، إذ رجع

حالاَ معهما وكان خاضعاً لهما. بل كان من باب التوبيخ اللطيف، إشعاراً لهما أنه مع صغر سنّه يقدّم إرادة الله على إرادة الأهل، وأنه لا يعتبر يوسف أباً حقيقياً له، بل أن أباه هو ذلك الذي وُلد من روحه. وَجَّهَ لهما اللوم بأنه مع علمهما أن يوسف ليس أباه، نسيا أنه ينبغي أن يكون في ما لله أبيه الحقيقي، وليس في ما ليوسف أبيه المجازي، فلو كان يوسف أباه لقال: «ما لأبي السماوي» تمييزاً.

ولا بد من القول إنه لو كان يسوع مجرد بشر، مولوداً من أب وأم بشريين، لاستحق اللوم على ما فعل وعلى ما قال، إذ لا يحقُّ لابن الإثنتي عشرة أن يستقل عن والديه في العُزْبَةِ ويسبِّب لهما عذاباً كهذا، ولا أن يكتم عنهما رغبته في أن ينفصل عنهما ويبقى في المدينة. ولا يحقُّ له أن يجيب أمه كما أجاب يسوع مريم بعد أن وجدته في الهيكل، لأنه بكتتها على إتمامها أقدس واجباتها الوالدية والدينية - أي الاعتناء بولدها والتفتيش عنه، ونسب إليها الجهالة في قوله: «ألستما تعلمان؟». فكأحد أولاد البشر، كان يجب أن يندم على ما سبَّبه لهما من التعب والهم، وأن يُظهر لهما إكراماً لائقاً، ولا سيما بالنظر إلى حالة والدته، والمحنة الشديدة التي حصلت لها بسببه.

إن مريم هي المصدر الوحيد لحفظ هذا الخبر ونشره. وقيل عنها في الوقت ذاته إنها لم تفهم كلامه. لكنها كانت تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها. فلماذا تخبر بما يخجلها؟ ولماذا اهتَمَّ البشير والوحي الإلهي بإيراد هذا الخبر الذي يُرينا ولدًا لم يَقمَّ تماماً بمقتضيات الإحترام نحو والدته؟

إذا اعتبرنا هذا الصبي كما صوّره لنا البشيريون في أخبار طفوليته أنه ليس مجرد بشر، تنحل هذه العقدة، لأن الطبيعة الإلهية فيه توجب عليه أن يذكر أمه ويوسف أيضاً عند قولها: «أبوك وأنا»، أن يوسف ليس أباه، وأنه ليس تحت سيطرتهم كما غيره من الأولاد مع والدهم، ولذلك يجب على مريم، ثم على البشير أن يخبرا بما جرى، مما

ينبّه الأفكار إلى أصله الإلهي، وأنه حقاً نزل من السماء ليولد من مريم. ويؤخذ من قوله لأمه: «ألستما تعلمان؟» أن السر الجوهري المتعلق بأصله السماوي كان معلوماً عنده، فهل كان يا ترى معروفاً عند «والديه»؟

يجب أن نهتم كثيراً بهذه الألفاظ الوجيهة من فم يسوع، لأنها أول ما حفظ لنا من كلامه. ويُلاحظ أن قوله: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» هو فاتحة تناسب كل حياته فيما بعد، وهو القانون الذي اتخذته لنفسه، ولم يجد عنه مطلقاً في كل الزمان، من أول سني إدراكه، إلى أن اختفى من أبصار تلاميذه متمماً إرساليته بصعوده إلى السماء.

يوحنا المعمدان يجهز الطريق

«وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ جَاءَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ يُكْرِزُ فِي بَرِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ قَائِلًا: «تُوبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ أَقْتَرَبَ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ. فَإِنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قِيلَ عَنْهُ بِإِسْعِيَاءَ النَّبِيِّ: صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. أَصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً». وَيُوحَنَّا هَذَا كَانَ لِبَاسُهُ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ، وَعَلَى حَقْوَيْهِ مِنْطَقَةٌ مِنْ جِلْدٍ. وَكَانَ طَعَامُهُ جَرَادًا وَعَسَلًا بَرِّيًّا. حِينَئِذٍ خَرَجَ إِلَيْهِ أُورُشَلِيمُ وَكُلُّ الْيَهُودِيَّةِ وَجَمِيعُ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْأُرْدُنِّ، وَأَعْتَمَدُوا مِنْهُ فِي الْأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.

فَلَمَّا رَأَى كَثِيرِينَ مِنَ الْفَرِيسِيِّينَ وَالصَّدُوقِيِّينَ يَأْتُونَ إِلَى مَعْمُودِيَّتِهِ، قَالَ لَهُمْ: «يَا أَوْلَادَ الْآفَاعِي، مَنْ أَرَاكُمْ أَنْ تَهْرَبُوا مِنَ الْغَضَبِ الْآتِي؟ فَاصْنَعُوا أَعْمَارًا تَلِيقًا بِالتَّوْبَةِ. وَلَا تَنْتَكِرُوا أَنْ تَقُولُوا فِي أَنْفُسِكُمْ: لَنَا إِبْرَاهِيمُ أَبًا. لِأَيِّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يَقِيمَ مِنْ هَذِهِ الْحِجَارَةِ أَوْلَادًا لِإِبْرَاهِيمَ. وَالْآنَ قَدْ وُضِعَتِ الْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ الشَّجَرِ، فَكُلُّ شَجَرَةٍ لَا تَصْنَعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقَطَّعُ وَتُلْقَى فِي النَّارِ. أَنَا أَعْمِدُكُمْ بِمَاءٍ لِالتَّوْبَةِ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي هُوَ أَقْوَى مِنِّي، الَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَحْمِلَ حِذَاءَهُ. هُوَ سَيَعْمِدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ وَنَارٍ. الَّذِي رَفُشُهُ فِي يَدِهِ، وَسَيَنْقِي بِيَدِهِ، وَيَجْمَعُ قَمْحَهُ إِلَى الْمَخْزَنِ، وَأَمَّا التَّنْبُؤُ فَيُحْرِقُهُ بِنَارٍ لَا تَطْفَأُ» (متى ٣: ١-١٢).

قبلما بزغ نور المسيح العظيم، الذي قال عن نفسه: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ» (يوحنا ١٢: ٨) لاح فجره في شخص نسيبه يوحنا المعمدان، الذي كان مثله-ولو أنه أقل منه كثيرًا، وقال عن نفسه: «لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَنْحِييَ وَأَحْلُ سُبُورَ حِدَائِهِ» (مرقس ١: ٧). سَمَاهُ يَسُوعُ: «السَّرَاجُ الْمَوْقَدُ الْمُنِيرُ» (يوحنا ٥: ٣٥). وقال فيه الرسول يوحنا إنه «إِنْسَانٌ

مُرْسَلٌ مِنْ اللَّهِ . لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ ، بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ . لَكِي يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَأَسِطَتِهِ» (يوحنا ٨:١) .

كان هذا الفجر المبشر به منتظراً، بسبب النبوات التي سبقت ظهوره . والمعمدان هو الوحيد غير المسيح الذي جاءت عنه نبوات قبل ظهوره بمئات السنين . أشار البشيريون إلى نبوة منها وردت في كتابة إشعيا ، أعظم الأنبياء الذين كتبوا بعد موسى وأشاروا أيضاً إلى كلام نبي ثانٍ بعده بثلاثمائة سنة . وهو ملاخي ، آخر الأنبياء الذين كتبوا بالوحي . ونبوته هي الحلقة الموصلة بين العهد القديم وأسفاره والعهد الجديد وأسفاره (إشعيا ٤٠: ٣ ، ملاخي ٣: ١ ، ٥: ٤) .

تقرّر مقام المعمدان أولاً بواسطة هذه النبوات، وتقرّر أيضاً بواسطة سلسلة المعجزات الممتازة التي رافقت ولادته . ثم بواسطة القوة الفائقة التي ظهرت فيه حتى جذب الجماهير إلى وعظه ومعموديته، لأنه تسلط تسلطاً روحياً وأدبياً على الشعب وعلى رؤسائهم، حتى على ملكهم الشرير هيرودس أنتيباس . فصار اليهود يتساءلون قائلين: «ألعل هذا هو المسيح؟» ونال هذه المكانة، دون شيء من الظواهر المجيدة التي كان اليهود يصورونها لمسيحهم متى جاء، ودون أن يفعل معجزة واحدة في زمانه .

أما الذي أيد عظمة مقام المعمدان تأييداً صريحاً كاملاً، فهو شهادات المسيح له، فقد قال عنه للشعب: «مَاذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الْبَرِّيَّةِ لِتَنْظُرُوا؟ أَنْبِيَاءُ نَعَمْ أَقُولُ لَكُمْ، وَأَفْضَلُ مِنْ نَبِيِّ . . . الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: لَمْ يَقُمْ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ!» (متى ١١: ٧-١١) كانت عظمته من النوع المُشار إليه في قول دانيال النبي: «وَالْفَاهِمُونَ يَضِيئُونَ كَضِيَاءِ الْجَلَدِ، وَالَّذِينَ رَدُّوا كَثِيرِينَ إِلَى الْبَرِّ كَالْكَوَاكِبِ إِلَى أَيْدِ الدُّهُورِ» (دانيال ١٢: ٣) .

يتقدم يوحنا المعمدان بروح إيليا ونشاطه، أمام ملك إسرائيل الحقيقي، حياً واحتراماً، عند قدومه إلى مملكته الأرضية، وكان غرض يوحنا كغرض إيليا: تبكيت

شعب الله على حيدانهم عن شرائعه تعالى، وعلى انقيادهم إلى العادات الفاسدة التي اقتبسوها من الأمم حولهم.

يسوق الضمير البشر ليُصغوا إلى الواعظ الذي يأتيهم بروح الأنبياء العظماء، مثل موسى الذي «قَبِلَ أَقْوَالًا حَيَّةً لِيُعْطِينَآ إِيَّاهَا» (أعمال ٧: ٣٨). وبروح الرسول بطرس الذي كتب: «إِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فَكَأَقْوَالِ اللَّهِ، وَإِنْ كَانَ يَجِدُ أَحَدًا فَكَأَنَّهُ مِنْ قُوَّةِ يَمْنَحُهَا اللَّهُ، لِكَيْ يَتَمَجَّدَ اللَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِسُوءِ الْمَسِيحِ، الَّذِي لَهُ الْمَجْدُ وَالسُّلْطَانُ إِلَى أَبَدِ الْأَبَدِينَ» (١ بطرس ٤: ١١).

الواعظ المملوء من الروح القدس - نظير المعمدان - لا يفتقر إلى سامعين، لأنه لا يشغل نفسه بالمقالات الفلسفية، ولا يتكلم من نفسه، ولا يعظ لأن الوعظ حرفته التي يرتزق منها ويُرضي الناس بها، بل يعظ كمن يسمع كلام الله الذي يقول له: «فَالْآنَ أَذْهَبُ وَأَنَا أَكُونُ مَعَ فَمِكَ وَأَعْلَمُكَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ» (خروج ٤: ١٢) وكمن يشعر مع بولس لما كتب: «وَقِيلَ لِي إِنْ كُنْتُ لَا أُبَشِّرُ» (١ كو ٩: ١٦).

تتيم المعمدان صغيراً، وليس له إخوة ولا أخوات. ولما بلغ سن الرشد لم يتبع أباه في رتبة الكهنوت، لأنه علم أنه نذير الله، فاتخذ البرية مسكنه، والجراد والعسل البري طعامه، وثوباً من وبر الإبل لباسه، والجلد حزاماً لوسطه، والزهد في الدنيا طباعه، فاختلف في ذلك عن المسيح الذي قضى سنه كلها بين إخوته وأخواته ومواطنيه في الناصرة، يمارس صناعته بينهم، ويختلط بهم كأحدهم، ثم يتجول في المدن والقرى بين الجماهير في أنحاء البلاد. ويلاحظ أن قصة المعمدان كقصة المسيح تخلو من الأخبار بين طفولته وسن الثلاثين، فالقول الوحيد الذي ورد عن المعمدان في هذه المدة كلها هو: «وَكَاثَتْ يَدُ الرَّبِّ مَعَهُ. أَمَّا الصَّبِيُّ فَكَانَ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، وَكَانَ فِي الْبَرَارِيِّ إِلَى يَوْمِ ظُهُورِهِ لِإِسْرَائِيلَ» (لوقا ١: ٦٦ و ٨٠).

ومع أن المعمدان لم يماثل المسيح في معيشتة الخارجية، إلا أنه ماثله في التمسُّك التامّ بالأمر الروحية، والاهتمام بخير الناس، والغيرة على إصلاحهم، والجرأة في الانتصار للحق والبر، ومحاربة الشر على أنواعه بين كل طبقات البشر. وكان نصير المساواة بين الناس، يحطّ المترقِّع منهم، وينهض المتواضع، ويقوم الموعِّج، ويمهّد الطريق إلى الصلاح، ثم إلى السماء. وكان نصير السلام، يردُّ القلوب المتباعدة بعضها إلى بعض. وفي كل هذا أتمّ النبوات التي وردت بشأنه، ومنها أنه يجهز الطريق لمجيء المخلّص الذي هو المسيح الرب. وقد قرن يوحنا المعمدان في معموديته الغفران بالتوبة، فليس الغفران أمراً مؤجلاً يناله الخاطيء عند موته، أو في المستقبل بعد أن يُظهر حقيقة توبته بالأفعال الصالحة، بل هو هبة إلهية تُعطى حالما تتولّد في قلب الخاطيء ندامة صادقة مخلصة تقود للالتجاء إلى الله.

ولا بد أن الفكر المنتشر في البلاد وقتها بأن ظهور المسيح قريب كان من أسباب ازدحام الجمهور حول المعمدان. ولما قال علانية إن المسيح قد جاء، زاد الحماس الديني في أفكار الناس، فتقاطروا إلى هذا المبشر أكثر فأكثر. لكنه لم يدارِ خاطراً ولم يراعِ مقاماً في توبيخاته القوية الصريحة على الشرور المتنوعة، فبرهن بجرأته وعدالته أهليته للوظيفة النبوية. وفي إنكار ذاتٍ أعلن أنه ليس أكثر من «صوت صارخ في البرية» ينطق بأوامر إلهية تسلّمها ليسلمها للشعب، كما صرّح عنه في النبوة القديمة المشيرة إليه. ونبّههم إلى أن الوقت قد حان لوضع الفأس على أصل الشجرة التي لا تثمر أثماراً صالحة، وأن بيد مسيحيهم القادم رفشاً لتنقية بيده، وإحراق البطالين بنار لا تُطفأ، بعد جمع الصالحين إلى مخزنه (متى ٣: ٧-١٢).

صوت المعمدان هذا هو الصوت الصارخ في البرية، وهو صدى الرعود على جبل سيناء عند إنزال الشريعة الطاهرة على موسى، فحرك الناس ليفتكروا بالنجاة. ولما رآهم المعمدان مرتعبين سألمهم مؤنباً: «من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟».

وأعلن أن النجاة لن تكون بالهروب، بل بإصلاح سيرتهم، وأكد لهم أن مجرد تسلسلهم من إبراهيم لا يخوِّهم البركات التي وعد الله نسل إبراهيم بها، لأن الله قادر أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم. ولكن لا يمكنه أن يحسب نسلًا لإبراهيم أناساً يخالفون إبراهيم وصلاحه. فظهر تأثير وعظه في المسائل التي تقدمت له لإجل الإرشاد الديني من صفوف الناس المختلفة، وظهرت حكمته في أجوبته.

ولم يكن كل وعظ يوحنا إرهاباً، فقد بشرَّ الناس بالعمل الفائق الذي يقوم به المسيح متى ظهر. وأنه هو يقدر أن يعمدهم بماءٍ للتوبة، لكن المعمودية الماء ليست إلا رمزاً وتمهيداً للمعمودية التي يفتقر إليها كل خاطئ لأجل الخلاص، وهي المعمودية الروح القدس، التي يستحيل على أعظم الرسل والأنبياء أن يعمّد بها، لأنها عمل الإله وحده، فلما قال يوحنا إن المسيح يعمّد بالروح القدس أعلن للناس أن يسوع المسيح حقاً هو الإله المتأنس، ولما قال إن المسيح الذي يأتي بعده كان قبله، قدّم برهاناً آخر بأن يسوع لم يكن مجرد بشر.

لا شك أن المعمدان مهّد طريق المسيح كثيراً، لأن تأثير وعظه خلق استعداداً داخلياً في كثيرين لسماح تعاليم المسيح وقبوله فيما بعد. وكان وعظه بأن ملكوت الله قد اقترب ذات الوعظ الذي افتتح به المسيح خدمته.

اختار الله المعمدان من النسل الكهنوتي ليهيئ طريق المسيح المخلص، ويوصل بين العهدين القديم والجديد، فأقامه نبياً لا كاهناً، وجعله الأخير في سلسلة الأنبياء، والأول في سلسلة المبشرين الجديدة. اختاره من أنساب يسوع في الجسد، تكريماً وتعزيزاً للعلاقات العائلية بين البشر، فالعائلة هي أساس المجتمع الإنساني، وأقدس فروعها، وهي أساسُ في الدين أيضاً. فرأس كل عائلة هو كاهنها ورئيسها الديني لا الزمني فقط. فالدين في المدارس حتى في المعابد أيضاً تابعٌ للدين في العائلة.

رَنَّ صوت المعمدان الصارخ في البرية، فملاً البلاد إلى أقاصيها، فجعله صيته مهوباً عند الجميع، من الملك هيرودس أنتيباس إلى رجل الشارع. وفي ذات يوم أتاه المسيح إلى بيت عبرة على ضفة الأردن من الناصرة على بعد سفر يوم - وكان قد أكمل السنين الثلاثين الإستعدادية. طال انحجاب حقيقة أمره عن أبصار العالم. وعن ذويه في وطنه فلم يعرفوا عظمة عمله المقبل، وهكذا يطول انحجاب البذرة في الأرض بحسب أهمية الشجرة التي ستكون منها.

المسيح يطلب من يوحنا أن يعمده

« حِينَئِذٍ جَاءَ يَسُوعُ مِنَ الْجَلِيلِ إِلَى الْأُرْدُنِّ إِلَى يُوحَنَّا لِيَعْتَمِدَ مِنْهُ. وَلَكِنْ يُوحَنَّا مَنَعَهُ قَائِلاً: «أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!» فَقَالَ يَسُوعُ لَهُ: «أَسْمَحِ الْآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نُكْمَلَ كُلَّ بَرٍّ». حِينَئِذٍ سَمَحَ لَهُ. فَلَمَّا اعْتَمَدَ يَسُوعُ صَعِدَ لِلْوَقْتِ مِنَ الْمَاءِ، وَإِذَا السَّمَاوَاتُ قَدْ انْفَتَحَتْ لَهُ، فَرَأَى رُوحَ اللَّهِ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ وَآتِياً عَلَيْهِ، وَصَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» (متى ٣: ١٣-١٧).

حان زمان ظهور المسيح ليباشر عمله الخلاصي، فامتزج مع الجمهور الفقير الكبير المحيط بالمعمدان في البرية. نظرهم يتقدمون ويعترفون للمعمدان بخطاياهم، وينالون منه المعمودية بالماء إشارة إلى المغفرة، ثم النصائح المناسبة لكل واحد. رأى رهبة هذا النبي الجديد واحترام الجموع وخضوعهم له، وسمع لهجة سلطته الروحية في كلامه، فتقدم المسيح إليه ليطالب أن يعمده، لكنه لم يقدم شرط المعمودية أي الاعتراف والتوبة. فكيف يعمده المعمدان؟ لاحظ المعمدان أن يسوع مزَّين بهيبة القداسة، فبدلاً من أن يطالبه بالتوبة، اعتبره أعظم منه وأطهر، ورفض أن يعمده وقال: «أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ!» (متى ٣: ١٤).

كان يوحنا ذا مقام رفيع، لأنه من السلالة الكهنوتية الممتازة، ومن منطقة اليهودية أشرف أقسام الأرض المقدسة. ومع ذلك لا تتعجب من كلامه هذا، لأنه علم أن الذي يخاطبه هو المسيح الذي طالما نادى بقرب مجيئه، وأطنب في وصفه، وتشوَّق إلى رؤياه. لكن اعتراف المعمدان الصريح بأنه لم يكن يعرفه يجعلنا نُعجب أنه وَجَّه كلاماً كهذا إلى نجَّار مجهول من وطن حقير. لم يتذلل المعمدان أمام رؤساء البلاد، حتى ولا أمام الملك ذاته. قد سمعنا صوته بالأمس للرؤساء بين الجمهور قائلاً: «يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟» فكيف يتذلل الآن أمام النجار الناصري، ويقول لهذا الشاب الغريب: «أنا محتاج أن أعتد منك؟».

في قوله هذا أظهر أنه مع كل تقواه وغيرته ونجاحه في خدمة الدين وانتصاره للصلاح، وحياته التقشُّفية يشعر أنه خاطئ، ويفتقر إلى من يعمده هو بمعمودية التوبة. برهن تواضعه على عظمته، فإن التفوق في الشعور بالخطية يرافقه دائماً التفوُّق في الصلاح. وكان جواب المسيح على اعتراض المعمدان بالرزانة والحكمة، كأنه معلم يخاطب تلميذاً له. قال: «أَسْمَحِ الْآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيْقُ بِنَا أَنْ نُكْمَلَ كُلَّ بَرٍّ» (متى ٣: ١٥).

لا بد من الوقوف نُجاه هذه العبارة، لأنها أول كلام حُفظ لنا من كلام المسيح عندما بلغ سن الرجولية، وهي القول الثاني فقط المدوّن من فمه العزيز. من قوله: «هكذا يليق» نعرف أن المسيح اعتمد لياقة لا وجوباً، واختياراً لا اضطراراً. فلم يقل كما قال المعمدان: «أنا محتاج أن أعتد منك». ولكنه طلب المعمودية ليشجع خدمة المعمدان، ويزيد تأثيره الحسن بين الناس، ويقوّي بقدوته تيار القادمين إليه ليسمعوا وعظه ويطلبوا معموديته، فيمكّنه بذلك أن يتمم هذا القسم من رسالته، وهو تهيئة طريق المسيح.

كان في المعمودية يوحنا معنيان (أ) أصغرهما يشير إلى التطهير من الخطية. وثانيهما وأكبرهما (ب) يشير إلى التخصيص لخدمة الملكوت الجديد الذي سوف يقيمه المسيح، وإلى حياة جديدة يحيها المعتمد.

بالمعنى الأول، معنى التطهير من الخطية، يعتمد المسيح لا شخصياً بل نيابياً ورمزياً، فقد أخذ المسيح محل الخاطئ بعد أن اتخذ شبه جسد الخطية... عند اليهود كان الطاهر يتنجس إن لمس ميتاً. ولما لمس يسوع جنسنا الخاطئ اعتُبر خاطئاً لأنه حسب كلام النبوة «أُحْصِيَ مَعَ أُمَّةٍ» (إشعياء ٥٣: ١٢) وهكذا اشترك في المعمودية التوبة نائباً عنا. وبهذا المعنى قال الرسول بولس إن الله: «جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا» (٢ كورنثوس ٥: ٢١).

ولكن بالمعنى الثاني، معنى التخصيص لخدمة الملكوت الجديد، يعتمد المسيح جدياً وشخصياً، لأنه يدخل الآن في خدمته الجهارية الخلاصية في إنشاء هذا الملكوت والترأس فيه. كان غيره من المعتمدين يدخل على حياة جديدة بواسطة ما يناله، إلا أن حياة المسيح الجديدة تقوم بما ينيله للناس. وفي المعموديته أخذ المسحة القانونية التي تتطلبها وظائفه الثلاث: كني و كاهن وملك.

عمد يوحنا يسوع بالماء، وصعد يسوع للوقت من الماء عالماً بما لهذه الساعة من الأهمية الفائقة في مستقبل حياته الأرضية، ومستقبل تاريخ البشر. أما معظم أفكاره فكانت متّجهة إلى غير هذه المعمودية. كان كابين الإنسان يعرف حاجته إلى المعمودية الروح القدس كشرط ضروري في كل المعمودية مسيحية ثابتة، ف شعر في هذه الساعة بقرب الأب منه ورضاه التام عنه. ولذلك كان أمراً طبيعياً أن يصلي وهو صاعد من الماء بعد العماد.

ومن الاستجابة التي نالها عرفنا أن صلواته كانت لأجل حلول الروح القدس عليه.

لما قرع باب السماء بصلاته انشقت وانفتحت له . وحلَّ عليه الروح القدس حسب طلبه .

ويظهر أن يوحنا كان موعوداً بعلامة بها يعرف المسيح، لأنه قال: «الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَعْمَدَ بِالمَاءِ، ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقَرّاً عَلَيْهِ، فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ . وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ» (يوحنا ١: ٣٣ و ٣٤) . هذا الوعد كان سبباً كافياً لالتخاذ الروح القدس هيئةً جسمية، لأن المعمدان حالما شاهد ذلك عرف دون أدنى ريب أن هذا هو الذي قال عنه سابقاً إنه يأتي بعده، الذي كان قبله، الذي يعمد بالروح القدس .

ومع حلول الروح القدس على الابن الأزلي المتأنس، سمع حالاً صوت الأب مستحسناً: « هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ » (متى ٣: ١٧) . ثم تحقيقاً لإيمان المعمدان كان هذا الصوت ضرورياً لتحقيق الرؤيا وتفسيرها . وهذه هي أولى المرات الثلاث في تاريخ المسيح التي فيها سُمع صوت الله من السماء .

بمجيء هذا الصوت اجتمعت الأقانيم الثلاثة في الإله الواحد، على صورة جلية ومؤثرة للغاية، عند تكريس المخلص . وبناء على هذا الظهور في اعتماده، نرى يسوع يوصي تلاميذه أن يعمّدوا كل من يؤمن به «بِأَسْمِ الآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ» (متى ٢٨: ١٩) . ولم يقل «بأسماء» الآب والابن والروح القدس .

مسابقة الكتاب

عزيزي القارئ،

إن أرسلت إلينا إجابة صحيحة على عشرين سؤالاً من الأسئلة الخمسة والعشرين التالية، نرسل لك كتاباً جائزة من كتبنا المختلفة. نرجو أن ترسل مع الإجابة اسمك وعنوانك وضحين داخل المظروف وليس على غلافه فقط، لنرسل لك الجائزة.

- ١ - لماذا كانت شريعة موسى قاصرة عن الإصلاح الكامل؟
- ٢ - اذكر سببين يجعلاننا محتاجين إلى المسيح.
- ٣ - اذكر شهادة قالها بيلاطس الوالي الروماني عن كمال المسيح.
- ٤ - أطلق مرقس البشير في فاتحة إنجيله ثلاثة ألقاب على السيد المسيح. ما هي - وما معنى كل منها؟
- ٥ - ماذا كانت وظيفة البشير لوقا، ولمن كتب إنجيله؟
- ٦ - لماذا كان لقب « الكلمة » مناسباً للسيد المسيح؟
- ٧ - لماذا أصاب الخرس زكريا؟
- ٨ - لماذا لا يستجيب الله لكل صلاة؟
- ٩ - ما هي مقدمة المعجزات التي رافقت تأتس السيد المسيح؟
- ١٠ - كيف حبلت مريم بالمسيح وهي عذراء؟
- ١١ - ماذا فكر يوسف خطيب مريم أن يفعل لما عرف أنها حامل؟
- ١٢ - كيف أوضح الله الموقف ليوسف؟
- ١٣ - ماذا حدث لجنين أليصابات عندما زارتها مريم، وما معنى هذا؟
- ١٤ - اذكر فكرة من النشيد الذي رتلته مريم العذراء في بيت أليصابات.

- ١٥ - ما الذي جعل يوسف ومريم ينتقلان من الناصرة إلى بيت لحم قبل ولادة المسيح، وما معنى هذا؟
- ١٦ - لماذا ظهر الملائكة للرعاة أولاً؟
- ١٧ - ماذا قال سمعان الشيخ إنه سيحدث لمريم العذراء؟
- ١٨ - اكتب النبوة التي أوردت مكان ميلاد المسيح، مع شاهدها الكتابي.
- ١٩ - ما هو تأثير زيارة المجوس على (أ) هيرودس الملك - (ب) أهل بيت لحم - (ج) يوسف ومريم؟
- ٢٠ - لماذا سكت الوحي عن أخبار حياة المسيح من عمر ١٢ سنة إلى عمر ٣٠ سنة؟
- ٢١ - في ماذا فكر المسيح عندما رأى الذبائح في هيكل أورشليم؟
- ٢٢ - ماذا تفهم من قول المسيح: «ينبغي أن أكون في ما لأبي»؟
- ٢٣ - اذكر حقيقة قالها المسيح عن يوحنا المعمدان.
- ٢٤ - ماذا نتعلم من قول السيد المسيح للمعمدان: «هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»؟
- ٢٥ - كيف ترى الثالوث الأقدس وقت المعمودية المسيح؟
- أرسل الإجابة فقط بدون تعليقات أخرى لئلا تُهمَل. ونحن بانتظار إجابتك.

Call of Hope • P.O. Box 10 08 27 • D-70007 Stuttgart • Germany

شواهد الكتاب المقدس

١٢ ٣:١٧	٦٦ ١٢-١:٣	تكوين
١٩ ٣-١:١	٧١ ١٧-١٣:٣	١٩ ١:١
١٨ ٤-١:١	٧١ ١٤:٣	خروج
٦١ ١٤:١	٧٢ ١٥:٣	٦٨ ١٢:٤
٤٤ ٢٩:١	٧٤ ١٧:٣	أمثال
٧٤ ٣٤ و ٣٣:١	١٠ ١٦:٧	٣٩ ١:٢١
٦٧-٦٦ ٨:١	٢٤ ١٢:٩	إشعياء
١٣ ٣١:٢٠	مرقس	٣٩ ١٦:٢٤
٦١ ٣٥:٥	١٦ ١:١	٧٢ ١٢:٥٣
٦١ ١٢:٨	٦٦ ٧:١	١٧ ١:٦١
أعمال الرسل	لوقا	٧ ١:٦١ و ٢
٦٨ ٣٨:٧	٢٤ ١٠:١٩	إرميا
رومية	١٨-١٧ ٤-١:١	٥٣ ١٥:٣١
٤٣ ١٧:١٤	٣٠ ٣٨-٢٦:١	دانيال
١ كورنثوس	٣١ ٢٨:١	٢٧ ٦ و ٥:١٠
٦٨ ١٦:٩	١٧ ٣٢:١	٦٧ ٣:١٢
٢ كورنثوس	٣٦ ٤٥-٣٩:١	٢٦ ١٤:٧
٧٣ ٦١:٥	٣٧ ٥٥-٤٦:١	ميخا
غلاطية	٢٦ ٢٥-٥:١	٤٩ ٢:٥
٥٥ ٤:٤	٦٨ ٨٠ و ٦٦:١	متى
فيلبي	١٠ ١٥-١٣:٢٣	٦٧ ١١-٧:١١
١٣ ١١-٩:٢	١٠ ٢٢:٢٣	١٥ ١:١
عبرانيين	٣٩ ٧-١:٢	٦١ ١٧-١:١
٨ ٣ و ٢:١٢	١٧ ١٠:٢	٣٤ ٢٥-١٨:١
٦١ ٦:١	٤٤ ٢١:٢	١٧ ٢١:١
١ بطرس	٤٥ ٣٥-٢٢:٢	١٠ ١٩:٢٧
٨ ٢١:٢	٤٦ ٣٨-٢٦:٢	١٠ ٢٤:٢٧
٦٨ ١١:٤	٦٠ ٥٢ و ٤٠:٢	٧٤ ١٩:٢٨
١ يوحنا	٦١ ٥٢-٤١:٢	٤٧ ١٢-١:٢
٤٧ ٨:٣	٤١ ٢٠-٨:٢	٥١ ١٥-١٣:٢
	٢٣ ٣٨-٢٣:٣	٥٢ ١٨-١٦:٢
	يوحنا	٥٣ ٢٣-١٩:٢
	٢٠ ٩:١٤	